المدينة الصامتة

محمود سالم

المدينة الصامتة

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

المدينة الصامتة

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ١ ٢٤٤١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
مقدمة	١١
صراع تحت الأمطار	١٣
حكمة «بوذا»	١٩
قبل أن ينقضي الليل!	٢٥
سر البونتياك الذهبية	٣١
«كراولي» ... الغوريلا	٣٧
المدينة الصامتة	٤٣
في الفجر ... دون هدف	٤٩
صلوات ... وبخور	٥٥

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

مقدمة

- ماذا يُريد الرجل ذو الوجه الأصفر؟
- تحت الأمطار ... «إلهام» في خطر!
- شيء ما يحدث في «بيروت» لا يمكن فهمه.
- ما الذي يحدث في سينما «الكونكورد»؟
- «باسم» يقضي ليلةً في فندق فخم ... ولكن بعد أن ينام يحدث أن ...!
- الرجل الغوريلا الذي جاء من «نابولي» ماذا خلفه؟
- رقم «صفر» لا يعرف شيئًا ... ولكن فجأة.
- بخور وصلاة في الجبل ... وينتهي كل شيء.

صراع تحت الأمطار

هبط الظلام مبكِّرًا على «بيروت» في تلك الأمسية الشتوية الباردة ... ثم تَبعه مطر خفيف أخذ يتزايد تدريجيًّا حتى أصبح سيولًا متدفِّقة ... وأسرعت السيارات تتلوَّى في الشوارع الحجرية محاذرةً الانزلاق على الأرض المبتلَّة ... وفي صف السيارات الطويل على الطريق المحاذي للكورنيش في اتجاه حي الحمراء، كانت سيارة «إلهام» تقف متحفِّزةً للسير. وخلف عجلة القيادة جلست «إلهام» وقد نفد صبرها لبطء السيارات ... بينما كانت ماسحتا الزجاج تتحرَّكان يمينًا ويسارًا ... وابتسمت «إلهام» عندما تخيَّلت المسَّاحتَين كأنهما حاجبان يرقصان أمامها في سخرية من ضيقها ... ولكن ابتسامة «إلهام» لم تستمرَّ طويلًا ... فقد فُتح الباب الذي بجوارها فجأة، وعندما التفتت ... رأت رجلًا يجلس بجوارها ... وبيده مسدس غريب الشكل، وقال الرجل بهدوء: سننحرف يسارًا في شارع «الأمير عمر».

فكَّرت «إلهام» قليلًا، ثم قالت: إن هذا ممنوع!

قال الرجل: ليس مهمًّا أن يكون ممنوعًا أم لا ... نفِّذي ما أقوله لك ... هذا المسدس كاتم للصوت ... وفي الإمكان أن تنطلق منه رصاصة لا تسمعين حتى أنت صوتها.

ظلت «إلهام» هادئةً وهي تُفكِّر بسرعة، ثم قالت: ماذا تُريد بالضبط؟

ردَّ الرجل: إذا نفَّذت التعليمات فسوف تعودين إلى بقية زملائك سالمة. إن كل ما نرجوه أن تحملي رسالةً إليهم!

إلهام: من هم زملائي الذين تتحدَّث عنهم؟

ردَّ الرجل: لا داعي للمراوغة. هيا تحرَّكي؛ فقد تحرَّكت السيارات التي أمامك!

انحرفت «إلهام» يسارًا في شارع «الأمير عمر»، ثم انطلقت مسرعةً في الشارع الخالي حتى وصلت إلى شارع «كليمنصو» المزدحم بالسيارات، وأخذت دورها مرةً أخرى في صفِّ السيارات.

عادت «إلهام» تقول: إلى أين نذهب؟

الرجل: إلى الجبل!

إلهام: أي طريق؟

الرجل: بعد أن نخرج من «بيروت» سأتولَّى أنا القيادة.

أخذت «إلهام» تُفكِّر بسرعة ... ما هي الحكاية بالضبط. لقد خرجت منذ ساعتَين في جو صحو لتُجرِّب هذه السيارة الجديدة ... وتركت المقر السري هادئًا ... لا تقارير من رقم «صفر» منذ أسابيع ... والشياطين لا يفعلون شيئًا سوى الأكل والنوم، وبعض التمارين الرياضية، والإشراف على مركز بيع وإصلاح الآلات الكاتبة والإلكترونية، ومركز بيع وإصلاح السيارات، وكلاهما موضوعان للتعمية فقط ... وحتى لا يعرف أحد أن هؤلاء الشبَّان والشابَّات هم أخطر مغامرين وأقواهم في هذه المنطقة.

مضت تسير والمسدس موجَّه إليها باليد اليسرى، بينما الرجل يُراقبها ويُراقب الطريق في نفس الوقت، وأخذت «إلهام» تختلس النظر إليه على أضواء الشوارع، ولاحظت على الفور أنه أجنبي ... وأنه في الأغلب صيني أو ياباني ... عمومًا من جنوب شرق آسيا؛ فقد كان شاحب الوجه أقرب إلى الصفرة، عيناه ضيِّقتان منحرفتان، وعظام الوجنتَين بارزة، وشعره أسود لامع مسترسل ... وزاد هذا من دهشتها ... ماذا يريد رجل من جنوب شرق آسيا منها؟! ... وما هي الرسالة التي يُريد أن تحملها؟!

وصلت السيارة إلى مشارف «بيروت» ... وأخذت طريق الجبل، وازداد هطول المطر ... وأصبحت القيادة مهمَّةً عسيرةً على الطرقات الجبلية الزلقة التي تنحدر مئات بل آلاف الأمتار، ويمكن أن تُؤدِّي إلى سقوط السيارة حيث لا نهاية إلَّا الموت الفظيع.

كان على «إلهام» أن تُقرِّر بسرعة ما ينبغي عمله ... هل تتبع الرجل لتعرف ماذا يريد ... أم تُحاول التخلُّص منه؟ ... وفكَّرت في أنه أو هو ومن معه ممكن أن يستجوبها؛ فقد يكون من منظَّمة معادية تُريد كشف حقيقة الشياطين الـ «١٣»، وهو سر يجب ألَّا يعرفه أحد ... ولكنها في نفس الوقت تذكَّرت المحاضرات التي استمعت إليها في المقر السري عن أساليب التعذيب الحديثة، والعقاقير الطبية التي يمكن أن تُنطق أي لسان مهما كان صاحبه ... وتخيَّلت أنها تحت وقع التعذيب أو العقاقير يمكن أن تعترف بكل ما تعرفه

عن الشياطين وعن رقم «صفر» ... وهكذا اتخذت القرار الوحيد المعقول ... أن تحاول التخلُّص منه ... رغم الإغراء القوي في نفسها أن تعرف ماذا يُريد بالضبط من ناحية ... والخوف في أن تفشل في التخلُّص منه من ناحية أخرى.

وبدأت «إلهام» ترسم خطتها معتمدةً على المميِّزات التي تُوجد في السيارة التي تركبها والتي لا تُوجد في السيارات الأخرى؛ ففي الإمكان فتح أي باب من السيارة من أزرار أمامها، وفي الإمكان تحريك أي مقعد في السيارة من أزرار أخرى ... كما يمكن رفع أو خفض المقاعد بنفس الطريقة ... وأقرَّت في نفسها أن الحظ حالفها لأنها خرجت لتجرِبة هذه السيارة اليوم ... فلو كانت في سيارة عادية لما تمكَّنت — إلَّا معرِّضةً نفسها لخطر جسيم — من التخلُّص من الرجل ... وشكرت في أعماقها رقم «صفر» لأنه زوَّدهم بثلاث سيارات حديثة من هذا النوع.

استقرَّت «إلهام» سريعًا على الخطة التي تنوي اتباعها. كانت تعتمد على التوقيت الدقيق ... وأي خطأ في هذا التوقيت ولو لجزء من الثانية يمكن أن يُؤدِّي إلى كارثة. وكانت الخطة تعتمد بالإضافة إلى التوقيت على معرفتها بطرق الجبل.

وبدأت تختار المكان الذي تُنفِّذ فيه خطتها ... بعد مائة متر من مكان السيارة هناك منحنًى ضيِّق تُضطر فيه السيارة إلى الانحراف إلى جانبها الأيمن بشدة، ثم تعود إلى الانحراف مرةً أخرى بسرعة على الجانب الأيسر ... وفي هذا المكان ستُنفِّذ «إلهام» خطتها.

وبدأت تقيس المسافة ... تسعين مترًا ... ثمانين ... سبعين ... ستين ... خمسين ... أربعين ... ثلاثين ... عشرين ... وفجأةً سمعت الرجل يقول: سنقف هنا وأقوم أنا بالقيادة!

ودقَّ قلب «إلهام» سريعًا، ولكنها قرَّرت ألَّا تُغيِّر الخطة ... وقالت بهدوء: لا أستطيع استخدام الفرامل بقوة ... وإلَّا انزلقت السيارة ... و...

وقبل أن تتم جملتها كانت قد ضغطت الزر الذي يفتح الباب الأيمن بجوار الرجل ودارت بالسيارة منحرفةً إلى اليمين بشدة، وضربت يده التي تحمل المسدس إلى فوق. تمَّ كل ذلك في وقت واحد ... وبطرف عينَيها شاهدت الرجل يسقط من الباب بعد أن أطلق رصاصةً أصابت الزجاج الأمامي ... وتعلَّقت قدماه بالسيارة لحظات، ثم سقط بكامله خارج السيارة. وانطلقت «إلهام» ولكنها سمعت رغم سقوط المطر صوت العجلة الخلفية اليمنى وهي تنفجر ... وبدأت السيارة تتأرجح وتنزلق يمينًا ويسارًا كأنها شخص فقد وعيه ... ووجدت نفسها بضع مرات وهي تكاد تسقط في الهاوية ... ولكنها في النهاية استطاعت السيطرة على السيارة ... وإيقافها ... ولاحظت على الفور أنها صعدت بالسيارة

إلى مكان يعلو نفس المكان الذي سقط به الرجل ... وأطلَّت تنظر ... وكم كانت دهشتها أن وجدت الرجل يقف تحت المطر! ... وهو ما زال ممسكًا بمسدسه.

كان ذلك شيئًا مدهشًا ... ولم يكن له تعليل إلَّا أن الرجل سقط على جانب الطريق المحاذي للجبل على الأرض المبلولة الطرية فلم يُجرح ... أو لعله جُرح جرحًا بسيطًا ... ولكن من المؤكَّد أنه يملك قوةً كبيرةً أو عزيمةً أكبر.

التصقت «إلهام» بإحدى الأشجار تتقي عصف الريح والمطر ... كان الجو باردًا خاصةً بعد أن كانت تجلس في دفء السيارة المكيفة بالهواء ... وأحسَّت بالريح تنفذ إلى جسمها وإلى عظامها، فضمَّت المعطف بقوة ... وأخذت تُفكِّر ... لم تكن هناك سيارات مارَّة في تلك الساعة ... وكان الجبل خاليًا تمامًا إلَّا منهما ... ومن المؤكَّد أن الرجل سيرى السيارة بعد لحظات ... ويبدأ في مطاردتها ... وكان الحل الوحيد هو البحث عن منزل قريب تأوي إليه وتتصل بالشياطين تقول لهم ما حدث، ولِيأتي أحدهم لأخذها، أو حتى تبقى للصباح ... ثم خطر لها فجأةً أنها تستطيع تغيير العجلة المثقوبة في دقائق قليلة ... ربما قبل أن يصل إليها الرجل ... وعاودت النظر إليه ولكنه كان قد اختفى.

أخذت تُنصت لعلها تسمع وقع أقدامه ... ولكن ذلك كان مستحيلًا مع صوت المطر المتدفِّق على الأرض التي ابتلَّت، وكان عليها أن تعتمد على ذكائها فقط.

ابتعدت عن السيارة مسافةً كافية، ثم التصقت بجذع شجرة، وأخذت ترقب السيارة التي كانت تبدو كصخرة ناتئة في الظلام ... ومضت الدقائق بطيئة ... دون أن يظهر الرجل ... وفجأةً وجدته يقترب من السيارة متنقِّلًا بين شجرة وأخرى بخِفة ... رغم أنه كان يعرج. فوقفت مكانها ساكنةً في انتظار ما سيفعله ... اقترب من السيارة وفتح الباب فأضاءت السيارة من الداخل، ثم أغلق الباب فعاد الظلام من جديد ... ووقف مكانه لحظات ... ثم بدأ يتقدَّم منها ... كان شيئًا غريبًا أنه اكتشف الاتجاه الذي سارت فيه، ولكنها سرعان ما عرفت أنه على الضوء الخفيف المنبعث من داخل السيارة، استطاع أن يرى على الأرض اتجاه أقدامها وبدأ يتقدَّم مترنِّحًا ... لقد كان مُصِرًّا على أن يُمسك بها ... وللمرة الألف سألت نفسها: لماذا؟! ولم تكن هناك إجابة مقنعة.

أخذ يقترب في اتجاهها محاذِرًا أن تنزلق قدماه ... فقد كانا معًا يقفان على مكان مترَّب مرتفع حوَّلته مياه الأمطار إلى وحل ... لم يكن في إمكانها أن تتحرَّك ... فيراها أو يسمع صوت أقدامها؛ فقد كانا قريبَين لا يفصل بينهما إلَّا بضعة أمتار ... وقرَّرت «إلهام» أنه لا مفرَّ من أن تشتبك معه إذا اقترب منها أكثر ... ومضى يقترب ويتقرب ... حتى أصبح على بُعد متر واحد ...

وفجأةً أطلقت السماء زمجرةً عالية، ولمع البرق فأضاء المكان ونظر أحدهما إلى الآخر ... لم يكن مفاجأةً لها أن تراه ... ولكن كانت مفاجأةً له ... وكان هذا الفارق كافيًا ... لقد أدهشته المفاجأة جزءًا من الثانية ... ولكن كان هذا يكفي «إلهام» ... فقد طارت قدمها في الهواء وأصابته في بطنه بضربة قاسية ... سقط يتدحرج من مكانه ... وسقط من المرتفَع الذي كان يقف عليه وهوى في الظلام.

وفي نفس الوقت فقدت «إلهام» توازنها وسقطت على الأرض؛ فقد انزلقت قدمها وأحسَّت بآلام رهيبة في ظهرها ورقبتها ... وخُيِّل إليها أنها فقدت الوعي لحظات، ثم استردَّت وعيها وأخذت تُحاول الوقوف، ثم تحاملت على نفسها ومضت إلى السيارة وأخذت المفاتيح، ثم فتحت الشنطة الخلفية وأخرجت الرافعة والعجلة الإضافية. كانت آلام في جسدها لا تُطاق ... والمطر ينزل بلا رحمة والريح عاصفة ... ولكنها وضعت الرافعة تحت السيارة، ثم أخذت تُديرها، كانت تخشى أن تنزلق السيارة، ولكن لحسن الحظ، ولقوة فرامل اليد، ثبَّتت السيارة في مكانها وتمَّ إبدال العجلة المثقوبة. وبعد لحظات كانت تجلس إلى عجلة القيادة وأدارت المحرِّك وأضاءت الأنوار ودارت ... وفجأةً على ضوء السيارة رأته من بعيد يصعد المرتفع ... إنه ما زال مُصِرًّا ... وداست على مفتاح البنزين وأطلقت للسيارة العنان، ورأته يترنَّح ويسقط، ولكنها من باب الحذر أخذت تدور وتلف كالثعبان حتى لا يتمكَّن من إصابتها مرةً أخرى ... فقد يكون سقوطه حركةً تمثيليةً لاصطيادها. وأخذت تبتعد بكل ما تملك من قوة ... في الطريق إلى «بيروت» ... ولم تكن تُفكِّر إلَّا في شيء واحد ... ماذا يُريد ذو الوجه الأصفر منها؟

حكمة «بوذا»

عندما وصلت «إلهام» إلى المقر السري للشياطين الـ «١٣» في «بيروت» كانت في حالة يُرثى لها ... ووجدت الشياطين جميعًا في انتظارها ... ولم تكد تدخل حتى علت الدهشة وجوههم جميعًا ... وبالطبع كان أكثرهم إحساسًا بالإشفاق والألم «أحمد» الذي أسرع يتلقَّاها بين ذراعَيه.

كان السؤال الذي انطلق من أفواههم جميعًا: ماذا حدث؟

وتقدَّمت السيدة «بديعة» المشرفة على المقر مسرعةً وقالت: دعوها الآن، إنها مصابة.

كان منظر «إلهام» حقًّا غريبًا ... فقد كانت ملابسها ملوَّثةً بالطين ... ويداها داميتان وشعرها مشعث، والماء يقطر من ملابسها كلها، وقد بدا على وجهها التوتُّر، ولكنها بعد أن نظرت إلى وجوه الأصدقاء حولها تحاملت على نفسها وابتسمت.

قالت «زبيدة»: حادث؟

ردَّت «إلهام»: هل أطمع أن تُأجِّلوا أسئلتكم حتى أُغيِّر ملابسي؟

وأخذتها السيدة «بديعة» من يدها كطفل صغير ودخلت بها الحمَّام ... وجلس الشياطين يتناقشون ... ويحاولون الإجابة على سؤال ... ماذا حدث؟

وبعد ربع ساعة ظهرت «إلهام» مرةً أخرى، وقد تغيَّرت تمامًا؛ فبعد الحمَّام الساخن والملابس النظيفة بدت وكأنها لا صلة لها بـ «إلهام» التي دخلت المقر منذ قليل.

وأسرعت إليها السيدة «بديعة» بكوب من الشاي يتصاعد منه البخار، فرشفت رشفةً كبيرة، ثم قالت: أليست هناك تقارير من رقم «صفر»؟

قال «أحمد» وهو يجلس بجوارها: لا.

إلهام: ألم يحدث شيء غير عادي اليوم؟

زبيدة: مطلقًا.

إلهام: لقد حاول شخص اختطافي.

لم يستطِع «أحمد» منع ابتسامة طفت على شفتَيه وقال: لا بد أنه معجب بك جدًّا ... فأنا شخصيًّا أُفكِّر في اختطافك.

إلهام: وحاول قتلي.

بو عمير: قتلك!

إلهام: بمسدس صامت ظلَّ مسدَّدًا إلى قلبي أكثر من ساعة.

قال «عثمان» معلِّقًا: وهل يُقتل الشياطين؟

إلهام: كان بيني وبين القتل ثوانٍ قليلة.

أحمد: ولكن كيف؟!

وروت «إلهام» للشياطين الـ «١٣» ما حدث لها ... واستمعوا جميعًا إليها دون أن يُقاطعها أي واحد منهم بسؤال ... ورغم أنهم جميعًا قد اجتازوا تجارِب ومغامرات ومواقف أعنف إلَّا أن خطف «إلهام» من قلب «بيروت» لم يكن حادثًا عاديًّا.

وانتهت «إلهام» من قصتها، وقدَّمت لها السيدة «بديعة» العشاء ... فأخذت تلتهمه في استمتاع وشهيَّة رغم الآلام التي كانت تُحس بها في جسمها. وبينما كانت تمضغ قطعةً من اللحم سألت: والآن أيها الشياطين، لماذا أراد الرجل ذو الوجه الأصفر خطفي؟ وما هي الرسالة التي كان يُريد أن يُبلِّغها لكم؟ ... لقد سألت نفسي هذا السؤال مئات المرات دون أن أصل إلى إجابة واحدة ... مؤكَّدة ... وإن كانت هناك عدة احتمالات.

ونظر إليها الشياطين وقد بدت على وجوههم اللهفة، فقالت «إلهام»: إن مقرَّنا السري قد اكتُشف، وإن قوةً معاديةً لا نعرفها تُريد أن تُصفِّي الشياطين الـ «١٣».

عثمان: تصفيهم!

إلهام: طبعًا ... هذا احتمال.

مصباح: والاحتمال الثاني؟

إلهام: إن هذه القوة تُريد أن تتعامل معنا ... بمعنى أن تُكلِّفنا بمهمَّة معيَّنة.

هدى: هذا مستحيل؛ فنحن لا نعمل إلَّا بتعليماتٍ من رقم «صفر»!

إلهام: احتمال ثالث ... أن هناك سرًّا معيَّنًا نحن نعرفه، ويُريدون معرفته ... ولْيكن هذا السر هو شخصية رقم «صفر».

رشيد: هذا رابع، أو سابع المستحيلات ... فنحن لا نعرفه شخصيًّا.

إلهام: إنني أقول لكم تصوُّرات ... فمنذ اقتحم ذو الوجه الأصفر السيارة وأنا أُفكِّر.

باسم: إن السؤال الأول الذي يجب أن نطرحه هو ... هل قصدوا أو قصد ذو الوجه الأصفر أن يخطفك أنت بالذات، أم أي واحد من الشياطين الـ «١٣»؟

إلهام: من الواضح يا «باسم» ... أنه كان يُريد أي واحد أو واحدة فينا ... فكل ما كان يُهمُّهم هو توصيل رسالة إلى الشياطين الـ «١٣».

فهد: هناك شيء واحد لم نُفكِّر فيه.

إلهام: ما هو؟

فهد: إنهم يتعاملون معنا لا بصفتنا الشياطين الـ «١٣»، ولكن بصفتنا أصحاب محل بيع وتصليح الآلات الكاتبة أو السيارات.

هزَّ الشياطين رءوسهم، وقالت «ريما»: ولكن عملنا هذا ليس فيه مجال للعنف أو استخدام المسدسات.

إلهام: إنه احتمال بعيد ... بالمناسبة أين قيس؟

أحمد: لقد كان يعمل طول النهار في قسم السيارات، وقد خرج لدخول السينما لأن هناك فيلمًا يُهمُّه أن يراه، والليلة آخر فرصة.

وفجأةً قال «أحمد»: ما حدث لـ «إلهام» يعني شيئًا مُعيَّنًا ... إننا مراقبون ... وإن «قيس» معرَّض للخطر هو الآخر.

ونظر «أحمد» في ساعته ... كانت قد اقتربت من منتصف الليل، فقفز واقفًا وقال: سأذهب مع «بو عمير» و«خالد» لانتظار «قيس» أمام دار السينما ...

وأسرع الثلاثة خارجين، بينما قالت «إلهام»: سأقوم لإرسال تقرير إلى رقم «صفر» بما حدث، فلعله يجد تفسيرًا لهذا الحادث العجيب.

وقامت «إلهام» ولكنها شعرت أنها متعبة فقالت: سآوي إلى فراشي. أرجو أن تقوم «زبيدة» بإرسال التقرير.

وقامت «زبيدة» إلى غرفة اللاسلكي وأخذت تدق الرسالة.

من «ش. ك. س» إلى رقم صفر

تعرَّضت الليلة «إلهام» لمحاولة اختطاف. الرجل الذي حاول خطفها ملامحه تدل على أنه من جنوب شرق آسيا، أو الصين، أو اليابان. حدثت المحاولة داخل «بيروت» وانتهت بالفشل، عند مرتفع على طريق محاذٍ لنهر الكلب عند دير اللويزة.

ومضت «زبيدة» تسرد التفاصيل. وفي هذه الأثناء كان «أحمد» و«بو عمير» و«خالد» قد وصلوا إلى سينما «الكونكورد» الفخمة حيث يعرض الفيلم، وتوزَّعوا أمام دار السينما وقد وضع كلٌّ منهم يده في جيبه تحمل مسدسًا ضخمًا.

وحسب فكرة «أحمد» ... كانوا يتوقَّعون أن يكونوا مراقبين ... وهكذا اختاروا أماكن مظلمة. وكان مدخل السينما الذي يقع تحت مستوى الأرض ببضعة أمتار خاليًا؛ فقد كان الجو عاصفًا باردًا ... حتى المحال الصغيرة التي تبيع مواد التسلية كانت قد أغلقت أبوابها. وأحسَّ «أحمد» بجو من الرهبة يُحيط بالمكان. لقد كان جوًّا مثاليًّا لخطف «قيس» أو حتى قتله ببندقية صامتة ... أو خنجر مسموم ... خاصةً هؤلاء الناس من جنوب شرق آسيا الذين يُجيدون استخدام السموم ...

وأشار «أحمد» إلى «بو عمير» و«خالد» أنه سيتجوَّل بين السيارات الواقفة لعله يجد من ذوي الوجوه الصفر. ومضى «أحمد» تحت المطر والريحِ يبحث بين السيارات الواقفة، ثم عاد مكانه؛ فلم يكن هناك أحد يمكن الاشتباه فيه.

فُتحت أبواب السينما ... وشدَّد الشياطين الثلاثة قبضاتهم على المسدسات، وأخذت عيونهم ترمق الخارجين بنظرات الصقور، وأخذ رُوَّاد السينما يخرجون إلى سياراتهم ... فقد خرجوا من الدفء إلى الجو العاصف. وزاد ازدحام الخارجين حتى لم يعد الثلاثة في إمكانهم البحث عن «قيس» ... وخُيِّل لـ «خالد» أنه رأى رجلًا من هذا النوع المغولي الأصفر يختفي بين الخارجين ... وأسرع إليه ولكنه لم يجد أحدًا. وبدأ الزحام يخف شيئًا فشيئًا دون أن يظهر «قيس» ... ثم انتهى خروج الروَّاد تمامًا ... ولم يظهر «قيس».

وأحسَّ «أحمد» بالخطر فقفز سريعًا وخلفه «بو عمير» و«خالد»، واجتازوا باب الخروج إلى الداخل، وكان في انتظارهم مفاجأة ... كان بعض موظفي السينما مجتمعين حول شخص لم يغادر كرسيه.

خفق قلب «أحمد» بشدة ... إنه لم يرَ هذا الشخص؛ فقد كان مختفيًا خلف الموظفين الذين انحنوا عليه، ولكن «أحمد» كان متأكِّدًا أنه «قيس» ... وقد كان «قيس». فلم يكد الشياطين الثلاثة يصلون إليه حتى وجدوه جالسًا وقد تدلَّى رأسه على صدره!

هل كان ميتًا؟ هذا هو السؤال الذي خطر برءوس الثلاثة في نفس الوقت ... وقال «أحمد» للموظفين: ابتعدوا من فضلكم.

ثم مال على «قيس» ورفع رأسه بيده، ثم وضع رأسه على صدره. كان ما زال حيًّا ... ولكن دقَّات قلبه بطيئة ... ورفع «أحمد» «قيس» ووضعه على كتفه ... وأسرع الثلاثة يُغادرون دار السينما بين دهشة الموظفين.

فتح «خالد» باب السيارة، ومدَّد «أحمد» زميله على الكرسي الخلفي، وجلس بجواره «خالد»، ثم أطلق للسيارة العنان عائدًا إلى المقر السري ... وسرعان ما كان جميع الشياطين ملتفِّين حول زميلهم في غرفة الإسعاف الخاصة بالمقر ... وسرعان ما كانت «زبيدة» تُخرج عقاقيرها وقالت وهي ترفع جفنه: إنه تحت تأثير مخدر قوي. وبدأت في سرعة ودقة تُخرج الحقن وتدفعها في ذراعه، وطلبت إعداد عدد من الفوَط الساخنة ... ومضت الدقائق بطيئة، وتنفَّس «قيس». ما زال بطيئًا ومتقطِّعًا، وجسمه باردًا ... ولكن بعد فترة بدأت الحرارة تدب فيه ... وبدأ وجهه الشاحب يسترد لونه ... وقالت «زبيدة»: سيكون على ما يرام ... ولكن لن يستردَّ وعيه تمامًا إلَّا في الصباح.

وقام «أحمد» و«خالد» و«بو عمير» بخلع ثياب «قيس» ... وألبسوه ثياب النوم، ثم نقلوه إلى حجرته ومدَّدوه على الفراش ... وغطَّوه جيدًا، ثم خرجوا ... وقال «خالد»: لقد نسينا إحضار السيارة التي ذهب بها «قيس» إلى السينما، وهي من السيارات الجديدة.

أحمد: لا بأس إذا كانت مقفلة ... ابحث عن المفاتيح في ثياب «قيس».

وأسرع «خالد» بالبحث عن المفاتيح في ثياب «قيس»، ولكن لدهشته الشديدة وجد الملابس خالية، ليس من سلسلة المفاتيح فقط ... ولكن من كل شيء ... لا أوراق ولا نقود ... ولكن الجيب العلوي كانت فيه قُصاصة واحدة من الورق ... فتحها وألقى نظرةً عليها، ثم أسرع إلى الشياطين الذين كانوا يجلسون في الصالة.

قال «خالد»: جيوب «قيس» قد جُرِّدت من كل ما فيها ... وترُكت فيها هذه الرسالة.

وقرأ «خالد» قُصاصة الورق: ننصحكم أن تنسَوا كل ما حدث لكم ... وكل ما سيحدث لكم ... فإن من الخير يأتي الخير ... ومن الشر يأتي الشر، كما قال «بوذا» الحكيم.

وقال «خالد»: وفي نهاية هذه الجملة ختم لـ «بوذا» وهو جالس على عرش اللوتس.

ووضع «خالد» قصاصة الورق على أنفه، ثم قال: إنها رائحة شرقية بالتأكيد ... رائحة بخور.

ومدَّ «خالد» يده بالقصاصة إلى أول الجالسين الذي نظر إليها، ثم أعطاها لمن يليه وهكذا حتى وصلت إلى آخر الجالسين ... وكان «أحمد» الذي تأمَّلها بدقة ورفعها إلى أنفه مرارًا، ثم قال: شيء لا يُصدَّق، علاقتنا بهؤلاء الناس! ... ما لنا نحن وحِكَم «بوذا»؟

وكما ارتسمت الدهشة على وجه «أحمد» ارتسمت على وجوه بقية الشياطين، وقال «أحمد»: سنخرج مرةً أخرى.

قبل أن ينقضي الليل!

اندفع ستة من الشياطين في سيارتَين ... «أحمد» و«بو عمير» و«عثمان» ... «مصباح» و«باسم» و«خالد» ... كل ثلاثة في سيارة. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف صباحًا ... وخلت الطرقات من المارَّة في تلك الليلة الباردة الممطرة، واندفعت السيارتان إلى سينما «كونكورد»، وعندما وصلتا إلى هناك كان واضحًا من أول نظرة أن سيارة «قيس» الجديدة قد اختفت ... ولولا قصاصة الورق والمخدر وضياع المفاتيح لكانت سرقةً عاديةً تحدث كل يوم ... ولكن تحت وقع الأحداث الغريبة التي جرت في تلك الليلة أدرك الشياطين الستة أنهم يُواجهون عدوًّا خفيًّا شديد البطش، استطاع في ساعات أن يُوقع باثنين من الشياطين، وأن يسرق سيارةً من أحدث السيارات وأكثرها سرعة.

كان المطر يهطل مدرارًا فوق «بيروت»، والرياح تعصف بجنون، ولكن «أحمد» قال: سنذهب فورًا إلى منطقة دير «اللويزة» التي انتهت عندها مغامرة خطف «إلهام»، لعلنا نجد الرجل هناك أو قريبًا من هناك.

وقفز الشياطين الستة ... ومضت السيارتان تجريان تحت المطر الرهيب ... وعلى الأرض الزلقة والعجلات تدور وتلف وتنحرف وتنزلق، وأجهزة الفرامل تعمل؛ كان «أحمد» يقود السيارة الأولى وخلفه «خالد» يقود السيارة الثانية. وبعد فترة غادرت السيارتان «بيروت» وأخذتا طريق الجبل. كان الطريق مقفرًا ... والبيوت قد نامت ... فبدا الجبل كأنه منطقة ميتة لم تطأها قدم إنسان من قبل.

كان «أحمد» و«خالد» كلاهما من أقدر السائقين في الشياطين الـ «١٣»، ولولا ذلك لسقطت السيارتان من فوق الجبل المرتفع، ولكنهما مضيا يُسرعان أحيانًا ويُهدِّئان السرعة أحيانًا أخرى، حتى وصلا إلى منطقة دير «اللويزة» ... وأطلقت السيارتان أضواءهما على الأرض وأخذتا تدوران هنا وهناك ... وقال «عثمان»: سأنزل للبحث.

أحمد: مستحيل!

عثمان: لقد أحضرت معي بطاريات قوية يمكن البحث على ضوئها.

أحمد: سننزل جميعًا إذن.

ونزل الشياطين الثلاثة ... ونزل بعدهم الشياطين الثلاثة الأُخر ... وبدأت أضواء البطاريات تلمع تحت المطر، متجهةً إلى الأرض المبتلَّة بحثًا عن أي أثر يمكن أن يهدي إلى الرجل ذي الوجه الأصفر، ولكن الأمطار الكاسحة كانت قد أخفت كل أثر للأقدام.

وفجأةً مد «عثمان» ضوء بطاريته إلى جانب الطريق وقال: هذا وشاح «إلهام».

واندفع الشياطين إلى الشجرة التي كانت «إلهام» تقف تحتها أثناء صراعها مع ذي الوجه الأصفر، وفعلًا كان وشاح «إلهام» ذا اللون الأزرق واقعًا على الأرض، وقد بلَّلته الأمطار تمامًا.

قال «أحمد»: إذا تخيلنا ما قالته «إلهام» عن معركتها مع الرجل، فالمفروض أن يكون قد وقع هنا.

وأشار «أحمد» إلى نقطة معيَّنة قريبة من الشجرة التي وصفتها «إلهام»، ثم أشار إلى المنحدر الذي وقع فيه الرجل ... ثم صعد مرةً أخرى وسقط بعد ذلك في الوحل كما وصفت «إلهام».

واتجهت البطاريات كلها إلى المكان ... ومرةً واحدةً اجتمعت عند نقطة معيَّنة، فمن تحت سورٍ من الأشجار والأعشاب برزت ساق رجل، وأسرع الشياطين إليه ... وشيئًا فشيئًا اتضحت معالمه. كان الرجل ذو الوجه الأصفر مستلقيًا على ظهره، واقترب منه «عثمان» وانحنى عليه، ثم رفع رأسه وقال: إنه مصاب بعدة طلقات نارية صُوِّبت إليه من قريب!

أحمد: ميت؟!

عثمان: تمامًا!

وقام «بو عمير» بتفتيش الرجل، ولكن جيوبه كانت خالية. وفكَّر «أحمد» أن يكون في جيبه قصاصة ورق كالتي وُجدت في جيب «قيس»، وأُعيد تفتيش الرجل مرةً ثانية، ولكن لم يكن في جيوبه شيء على الإطلاق.

ركب الشياطين الستة السيارتَين، وعاودوا طريقهم إلى «بيروت». كانت الريح قد خفَّت حدتها قليلًا ... وتوقَّف المطر إلَّا رذاذًا خفيفًا كان يتساقط في نعومة ... وأخذت السيارتان تشقان طريقهما في بطء عائدتَين ... فلم يعد هناك سبب للإسراع ... وقد كان هذا سببًا في إنقاذ حياتهم، فعند أحد المنحنيات صاح «عثمان» فجأة: قف!

ومدَّ «عثمان» قدمه فوق قدم «أحمد» فضغط الفرامل ... وفي نفس الوقت مدَّ يده فجذب فرامل اليد ... حدث كل ذلك في ثانية واحدة، وأثار دهشة «أحمد» و«بو عمير»؛ فقد توقَّفت السيارة فجأةً على الأرض الزلقة ودارت حول نفسها، ثم اندفعت إلى حافَّة الجبل، ولحسن الحظ مرةً أخرى ارتطمت بشجرة ووقفت.

وتوقَّفت السيارة الثانية عندما شاهد «خالد» السيارة الأولى وهي تقف وتنزلق ... وصاح «أحمد»: ماذا حدث يا «عثمان»؟ كدنا نسقط في الهاوية.

قال «عثمان» وهو يفتح باب السيارة: اتبعني!

ونزل «أحمد» وتبعه «بو عمير» ... وعلى ضوء مصباح «عثمان»، شاهد الثلاثة سلكًا رفيعًا ممتدًّا بعرض الطريق، وقال «عثمان»: هذا السلك متصل بشحنة ديناميت. لقد كنت أنظر إلى الأرض بإمعان ونحن نسير، ولا أدري ما الذي جعلني أفعل هذا ... ربما الحاسة السادسة التي يتحدَّثون عنها، وفجأةً وقعت عيناي على هذا السلك.

أخرج «أحمد» مسدسه مسرعًا وقال: سنختبئ فورًا خلف السيارة. إذا كانوا قد وضعوا هذا السلك لنسفنا ... فلا بد أنهم قريبون منا جدًّا.

وأسرع «عثمان» يُبلِّغ «مصباح» و«باسم» و«خالد» الذين كانوا يجلسون في السيارة الواقفة في انتظار ما يفعل الثلاثة.

في تلك الأثناء كانت أحداث أخرى خطيرة تقع في مقر الشياطين السري، لم يكن مستيقظًا سوى «فهد» و«زبيدة» و«رشيد» ... كانت «زبيدة» مشغولةً بـ «قيس»، وكان «فهد» و«رشيد» يجلسان في صالة المقر السري يتحدَّثان في انتظار عودة الشياطين الستة، بينما قامت «هدى» و«ريما» للنوم.

وخُيِّل لـ «فهد» أنه يسمع صوتًا في الدور الأول للمقر السري، وكان الدور الأول مكوَّنًا من جزءَين؛ جزء يُستخدم لبيع وإصلاح الآلات الكاتبة، والثاني لبيع وتصليح السيارات، وكان للجزء الثاني طابق تحت الأرض يستخدم كجراج للسيارات التي تحت الإصلاح.

أرهف «فهد» سمعه، ثم قال لـ «رشيد»: هل تسمع شيئًا؟ ردَّ «رشيد»: لا أسمع سوى صوت المطر والرياح.

فهد: أنصت جيدًا.

وأنصت الاثنان لحظات، ثم قال «رشيد»: ربما ... أو يُخيَّل لي أنني أسمع صوتًا في الطابق الأول.

فهد: تعالَ نرَ!

وفتح الاثنان باب السلَّم الذي يُوصل بين الدور الثاني والدور الأول، ثم نزلا السلَّم الصغير ... ولكنهما لم يستمرَّا في النزول ... لقد وضح الصوت الآن، إنه ليس في الطابق الأول، ولكن في الطابق الذي تحت الأرض حيث الجراج. وأشار «فهد» لـ «رشيد» أن يُخفِّف من وقع خطواته، وتسلَّلا معًا على السلَّم إلى الدور الأول.

كانت صالة عرض السيارات في الدور الأول مظلمةً لا يُضيئها إلَّا ضوء خفيف ... بدت فيه السيارات كالوحوش الرابضة، ولم يكن هناك أثر لإنسان ... وسار «فهد» و«رشيد» محاذرَين حتى وصلا إلى السلَّم الحديدي الذي يصل إلى الدور تحت الأرض، وربض «فهد» على طرف السلَّم، ووضع أذنه عند السلَّم وأخذ يستمع ... ثم أشار إلى «رشيد» بما يعني أن هناك أشخاصًا أسفل ... ولم يكن معهما أسلحة، ولم يكن هناك وقت لإحضارها.

ربض «رشيد» بجوار السلَّم وخلع «فهد» حذاءه بسرعة ... ثم نزل بضع سلالم، ونظر إلى أسفل. كان هناك ثلاثة أشخاص يسيرون كالأشباح داخل الجراج ... ودُهش «فهد» كيف دخلوا ... إن باب الجراج مغلق بقفل معقَّد التركيب لا يمكن فتحه إلَّا بمفتاحه ... معنى هذا أنهم ليسوا لصوصًا عاديين جاءوا لسرقة سيارة ... إنهم أخطر من ذلك بكثير ... وأشار «فهد» لـ «رشيد» أن ينزل معه. وخلع «رشيد» حذاءه هو الآخر، ونزل الاثنان ...

كان الرجال الثلاثة قصار القامة كالأقزام ... ولكن كان من الواضح أنهم أقوياء. وكان الثلاثة منهمكين في دفع إحدى السيارات لإبعادها جانبًا أو إخراجها من الباب المفتوح.

واقترب «فهد» وخلفه «رشيد» دون أن يراهما الرجال الثلاثة ... فقد كانوا مشغولين تمامًا بما يفعلون ... واقترب «فهد» حتى أصبح على بعد مترَين فقط من أحد الرجال، ثم قفز قفزتَين ... الأولى رفعته فوق السيارة التي كان الرجال الثلاثة يدفعونها ... والثانية كانت فوق الرجل، وسقطا معًا على الأرض.

وتنبَّه الرجلان الآخران ... كانا يقفان متجاورَين ... وقفز «رشيد» في الهواء، وبقدمه اليمنى أصاب أحد الرجلَين في بطنه ... ووقف أحد الرجلَين قبل الآخر مادًّا يده بمسدس ... طار على الفور من يده بضربة ثالثة من قدم «رشيد»، الذي هوى بيده على وجه الرجل في لكمة داوية ... سقط على أثرها فوق رفرف إحدى السيارات وأحدث دويًّا.

وعندما التفت «رشيد» إلى الرجل الثاني سمع الجميع صوتًا عند باب الجراج يقول بصوت مرتفع: لا يتحرَّك أحد من مكانه!

وعلى ضوء الشارع ظهر رجل يحمل مدفعًا ... وبدأ الرجال الثلاثة يتحرَّكون في اتجاه نفس السيارة التي كانوا يُحاولون إزاحتها من الطريق ... ووقف «فهد» و«رشيد» ساكنَين

وهما يُفكِّران فيما يُريده الرجال الثلاثة ... وفي نفس الوقت كانا متأكِّدَين أن «زبيدة» قد سمعت ما يدور في الجراج ... وأنها لا بد على مقربة تستعد للتدخُّل.

كانت هناك خمس سيارات واقفة في صف واحد ... وكان الرجال الثلاثة يُزيحون السيارة الأولى بصعوبة ... فقد كان الجراج مزدحمًا بالسيارات ... منها سيارات الشياطين ... ومنها سيارات بعض الزبائن ... وفكَّر «فهد» و«رشيد» معًا فيما يفعله الرجال الثلاثة. كان واضحًا أنهم يُريدون أخذ سيارة من السيارات الخمس ... ولكن أي سيارة؟ ولماذا؟ إذا كانوا يُريدون سرقة سيارة؛ فقد كان في إمكانهم أن يسرقوا السيارة الأولى، وهي سيارة حديثة من طراز «جاجوار» الغالية الثمن ... إذن من المؤكَّد أنهم يُريدون سرقة سيارة معيَّنة ... أي سيارة يا تُرى؟

استطاع الرجال بعد جهد إبعاد السيارة الأولى ... ثم بدءوا في تحريك السيارة الثانية، وكان الرجل ذو المدفع الرشَّاش قد دخل الجراج ... وفي هذه اللحظة حدث شيئان في نفس الوقت ... أُضيئت أنوار الجراج كلها ... وسقط المدفع الرشاش من يد الرجل ... ولدهشة «فهد» و«رشيد» أسرع الرجال الأربعة خارجين من الجراج دون أن يُبدوا مقاومة ... ثم أغلقوا باب الجراج خلفهم بسرعة هائلة.

وسمع «فهد» و«رشيد» صوت أقدام تجري على السلَّم مسرعة ... ووصلت «زبيدة» وقالت: هل أنتما بخير؟ ثم اندفعت إلى باب الجراج ومعها «رشيد» و«فهد»، ولكن الباب كان قد أُغلق بالمفتاح من الخارج ... وسمعوا صوت محرِّك سيارة يدور، ثم انطلقت السيارة مبتعدة. وقف الشياطين الثلاثة صامتين، ثم قالت «زبيدة»: أطلقتُ رصاصةً صامتةً حتى لا ألفت الأنظار. إننا لا نستطيع إيجاد مقر جديد أفضل من هذا ... وتدخُّل الشرطة قد يُفسد كل شيء.

قال «فهد»: إنني لا أدري ماذا يُريد هؤلاء الناس ... حاولوا خطف «إلهام» وخدَّروا «قيس» ... ولا ندري ماذا حدث لبقيَّة الشياطين في الجبل ... هل يكون كل هذا من أجل سرقة سيارة؟! هذا غير معقول!

سر البونتياك الذهبية

عندما عاد الشياطين الستة من الجبل، وانضمُّوا إلى بقية الشياطين، وروى الجميع ما عندهم من معلومات وأحداث ... بدا أن الأحداث تتشابك بطريقة معقَّدة وغير مفهومة في نفس الوقت ... محاولة خطف «إلهام»، ثم مصرع الرجل ذي الوجه الأصفر بالرصاص، وتجريده من أوراقه، تخدير «قيس» وسلبه أوراقه ومفاتيحه ... وقصاصة الورق والتحذير الغريب الذي فيها، محاولة نسف الشياطين في الجبل ... السطو الغريب على جراج المقر السري ... تحرُّكات السيارات المريبة.

كل حادثٍ من هؤلاء كان ينتهي بعلامة استفهام ... وقال «أحمد» معلِّقًا: الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل، وأظن أن في الإمكان أن ننام ... وفي الصباح سنعقد جلسةً للشياطين معًا ... لعلنا نستطيع ربط هذه الأحداث، كل بعضها ببعض.

عثمان: أظن أننا يجب أن نضع حراسة.

أحمد: بالتأكيد. ليس اليوم فقط، ولكن خلال الأيام المقبلة كلها، حتى تنتهي سلسلة الأحداث الغامضة هذه بشيء مفهوم ... وعلى كل حال لن أكون أول من يقوم بالحراسة ... إنني أشعر برغبة شديدة في النوم.

عثمان: سأُنظِّم الحراسة حتى الصباح ... وعلى كل حال لم يبقَ إلَّا ساعات قليلة.

أحمد: أرجو أن تقوم «زبيدة» في الصباح الباكر بإرسال تقرير وافٍ إلى رقم «صفر» بهذه الأحداث كلها.

وقام الشياطين جميعًا إلى غرفهم، وساد الصمت المقر السري ... ولم يبقَ ساهرًا سوى «عثمان» الذي حمل مسدسًا، وجلس في الدور الأول مصغيًا إلى كل صوت ... ولكن لم يكن هناك سوى صوت تساقط المطر الخفيف على «بيروت».

في الصباح الباكر كانت «زبيدة» في غرفة اللاسلكي تُرسل تقريرًا مطوَّلًا إلى رقم «صفر» بكل الأحداث التي جرت في الليلة السابقة ... وعندما انتهت منه أسرعت للَّحاق بمؤتمر الشياطين ... وكان «قيس» قد استيقظ في الصباح في حالة لا بأس بها ... وانضمَّ إلى المؤتمر ... وطلب منه «أحمد» أن يروي للشياطين ما حدث له، قبل أن يضع الشياطين تصوُّراتهم حول الأحداث الغريبة التي وقعت في الليلة الممطرة.

قال «قيس»: انتهت نوبة العمل في الجراج الساعة السابعة والنصف كالمعتاد ... وكما فعلت «إلهام» قرَّرتُ أن أُجرِّب إحدى السيارات الجديدة ... ثم أتعشى في الخارج وأدخل السينما ... وهكذا أغلقت الجراج وانصرفت.

زبيدة: وأخذت مفاتيح الجراج معك؟

قيس: فعلًا ... ولكن لماذا هذا السؤال؟

زبيدة: لأن أعداءنا الذين لا نعرفهم جرَّدوك من المفاتيح وسرقوا السيارة الجديدة وفتحوا الجراج ليلًا لهدف سنبحثه فيما بعد.

بدا على وجه «قيس» الألم فقال «أحمد»: لا بأس، كلنا نخطئ ... المهم ماذا حدث بعد ذلك؟

قيس: خرجتُ بالسيارة ووصلتُ إلى أطراف «بيروت»، ولكن الأمطار بدأت تنزل بشدة، ففضَّلت العودة، وذهبت إلى مقهى «الهورس شو» حيث تناولتُ عشاءً خفيفًا.

إلهام: ألم تُحسَّ بأحد يتبعك؟

فكَّر «قيس» قليلًا، ثم قال: ربما؛ فعندما وصلتُ إلى مشارف «بيروت» لم تكن هناك سيارات تصعد الجبل. كانت السيارات كلها في طريق العودة ... ولكن لاحظتُ سيارةً تسير خلفي صاعدةً الجبل ... وعندما دُرت للعودة ... وجدتها تدور وتعود هي الأخرى ... ولكن نظرًا لأننا لا نعالج لغزًا جديدًا ولسنا مشتبكين في الصراع مع أحد، فإن ذلك لم يلفت انتباهي.

إلهام: كم كانت الساعة؟

قيس: حوالي الثامنة والنصف. وبعدها كما قلت عدت إلى «بيروت». وبعد العشاء اتجهتُ بالسيارة إلى دار السينما وجلست ... وبعد أن بدأ الفيلم بربع ساعة تقريبًا، جاء شخص وجلس بجانبي ... لقد كانت السينما غير مزدحمة بسبب الجو العاصف.

أحمد: ألم تنظر إلى هذا الشخص مطلقًا؟

قيس: لا ... ولكن ربما ...

وسكت لحظات فقالت «إلهام»: ربما شممت رائحةً غريبة؟

التفتَ إليها «قيس» مندهشًا وقال: بالضبط! ... رائحة شرقية.

قالت «إلهام»: إنه من ذوي الوجوه الصفر.

قيس: وقرب نهاية الفيلم انحنى الرجل إلى أسفل ... وقبل أن أدري ما يحدث أحسست بشيء ينغرس في فخذي ... والحقيقة أنني ذُهلت ... ونظرتُ إلى الرجل ولكنه كان قد انصرف مسرعًا ... فوقفت ... ولكني أحسستُ بدوار شديد ... وعاودتُ الجلوس ... وحاولتُ الصياح ... ولكن الصوت توقَّف في حلقي ... ورأيت بعينَين غائمتَين الرجل يعود إلى جواري، ثم ذهبتُ في غيبوبة لم أُفق منها حتى الصباح ... فكيف عثرتم عليَّ؟!

وروى له «بو عمير» بسرعة ما حدث، وكيف تمَّ تجريده من أوراقه، وقصاصة الورق التي وُجدت في جيبه.

وقال «أحمد»: من الواضح جدًّا أن شيئًا في الجراج يهم هؤلاء الناس ذوي الوجوه الصفر ... ولكن ما هو؟!

لم يردَّ أحد من الشياطين، وقال «أحمد» موجِّهًا حديثه إلى «قيس»: ألم يحدث شيء غير عادي في الجراج أمس أثناء نوبة عملك بالنهار؟

فكَّر «قيس» قليلًا، ثم قال: لا شيء، إلَّا أن شخصًا حضر يسأل إن كان في إمكانه أن يتسلَّم سيارةً من الجراج نيابةً عن صديقه. وقال لي إن معه الأوراق الخاصة بصاحب السيارة ... ولمَّا كانت هذه حالة جديدة بالنسبة لي فقد طلبت منه أن يعود اليوم بعد أن نُناقش الأمر.

بدا الاهتمام واضحًا على وجه جميع الشياطين، وقال «أحمد»: هل كان الرجل آسيوي الملامح؟

قيس: لا ... إنه أمريكي؛ فقد أبرز لي جواز سفره.

أحمد: وهل اطلعت على أوراقه؟

قيس: الحقيقة أنني لم أهتم، بل لا أذكر حتى أي سيارة أراد استلامها؛ فقد رفضتُ دون أن أهتم بالسيارة ولا بصاحبها. كل ما اهتممتُ به كان مبدأ تسليم سيارة شخص لشخص آخر.

فهد: من المؤكَّد أن السيارة المطلوبة هي واحدة من السيارات الخمس الموضوعة في طرف الجراج الأيسر؛ فقد كان الآسيويون الثلاثة يُحاولون إخراج سيارة من هذا الصنف.

أحمد: هيا بنا نفحص هذه السيارات ... وفي نفس الوقت عليك يا «قيس» بانتظار الرجل الذي سيحضر لاستلام السيارة. إن لنا معه حديثًا طويلًا.

نزل خمسة من الشياطين إلى الجراج ... «أحمد» و«بو عمير» و«فهد» و«عثمان» و«خالد» ... بينما وقف «قيس» عند باب الجراج في انتظار حضور الأمريكي.

انهمك كل واحد من الشياطين في فحص واحدة من السيارات الخمس. ماذا يمكن أن يُريد منها هذا الأمريكي ... أو هؤلاء ذوي الوجوه الصفر. وظهرت «زبيدة» في هذه اللحظة وقالت: إن هناك تقريرًا من رقم «صفر» ... وترك الشياطين الخمسة السيارات وصعدوا إلى الدور الثاني، حيث كان التقرير في يد «إلهام»، وجلس الشياطين جميعًا يسمعون.

من رقم صفر إلى «ش. ك. س»

لم يكشف رجال الشرطة حتى الآن عن شخصية الرجل ذي الوجه الأصفر، وليس عندي تفسير لكل ما حدث لكم. وليس في أرشيف الكهف السري، ولا في أرشيف الشرطة اللبنانية أية معلومات عن ذوي الوجوه الصفر. أُرجِّح أنهم لا يتعاملون معكم بصفتكم الشياطين الـ «١٣» ...

وتوقَّفت «إلهام» عن القراءة لحظات، ثم قالت: هناك فقرة أخرى مستقلَّة من التقرير، يقول رقم «صفر»:

عُثر أمس في يخت إيطالي على رجل مجهول الجنسية قتيلًا. المرجَّح أن الرجل أمريكي الجنسية رغم عدم وجود أوراق معه ... ولكن من ملابسه وحقائبه التي وُجدت مفتوحةً ومبعثرةً يمكن ترجيح أنه أمريكي ... وقد اتضح أن اليخت وصل من إيطاليا منذ بضعة أيام ... مرفق صورة للرجل ... يمكن أن يقوم ثلاثة منكم بزيارة اليخت. أرسلنا إلى البوليس الدولي للبحث في ملفاتها عن الرجل ... سيصلكم تقرير آخر عندما يصلنا رد البوليس الدولي ... انتهى.

أمسك «أحمد» بصورة الرجل، ومدَّ شفتَيه ... كان رجلًا ضخم الجسم ... ضخم الرأس، يُشبه غوريلا ... وقد بدت في وجهه علامات جراح قديمة. وأخذ يتذكَّر إن كان قد رآه من قبل، ولكنه كان متأكِّدًا أنه لم يرَه من قبل.

وسلَّم «أحمد» الصورة إلى بقية الشياطين الذين أخذوا يتناقلونها فيما بينهم، حتى وصلت إلى «باسم» الذي صاح: إنني أعرف هذا الرجل!

كانت هذه الجملة كأنها قنبلة انفجرت في الصالة الواسعة. وتركَّزت كل الأنظار على «باسم» الذي عاد يُضيف: هذا الرجل أودع عندنا سيارةً منذ يومَين ... السيارة «البونتياك» التي تُوجد في الصف الذي كنا نفحص سياراته.

أحمد: متأكِّد يا «باسم»؟

باسم: وكيف أنسى شكله؟ إن شكله متميِّز جدًّا ... فعندما رأيته أحسستُ بارتجاف؛ فقد كان يبدو ...

وسكت «باسم» كأنه يبحث عن كلمة مناسبة: يبدو وكأنه قاتل مطارد.

قال «أحمد»: إنه الآن قتيل.

رشيد: إذن فالسيارة «البونتياك» هي السيارة التي يدور حولها هذا الصراع الرهيب بيننا وبين ذوي الوجوه الصفر.

وأشار «أحمد» بيده قائلًا: هذا هو الاحتمال الأكبر. هيا بنا.

ونزل الشياطين الخمسة مسرعين إلى الجراج، بينما طلب «أحمد» من «زبيدة» أن تُرسل بسرعة تقريرًا إلى رقم «صفر» بهذه المعلومات.

واتجه الشياطين الخمسة إلى السيارة «البونتياك» الذهبية اللون ... ووقف «بو عمير» أمامها قائلًا: أي سرٍّ فيك أيتها السيارة؟!

وبدأ الأصدقاء فحصًا دقيقًا بها. فتشوا كل مكان ظاهر منها ... ولكن لم يكن فيها شيء غير عادي مطلقًا. كانت سيارةً حديثةً جميلة ... ولكن كما قال «عثمان»: لا تستحق أن يُقتل في سبيلها رجل ... وتُخطف فتاة ... ويُخدَّر شاب ... وتتم محاولة لنسف نصف دستة من الشياطين ...

وفجأةً قال «باسم»: إن اسم الرجل مسجَّل في سجل السيارات.

وأسرع إلى الدفتر، ثم عاد قائلًا: اسمه «ف. كراولي» ... من شيكاغو في الولايات المتحدة.

صفَّر «أحمد» قائلًا: شيكاغو!

وقال «بو عمير»: سأطلب من «زبيدة» أن تُرسل هذه المعلومات إلى رقم «صفر» فورًا.

وأسرع «بو عمير» يقفز السلالم قفزًا ... بينما انهمك بقية الشياطين في تفتيش السيارة للمرة الثانية.

ووقف «أحمد» مفكِّرًا، ثم قال: أعتقد أن علينا فك هذه السيارة قطعةً قطعة. إن سر الأحداث الأخيرة كلها يكمن في مكان ما منها ... فما هو؟

وأسرع «بو عمير» و«عثمان» و«مصباح» و«باسم» يُغيِّرون ثيابهم. وبدءوا في تفكيك السيارة وفحص كل جزء فيها.

صعد «أحمد» إلى الدور الثاني وأخذ كوبًا من الشاي ... وخرج إلى الشرفة فوجد «إلهام» تجلس وحدها تستمتع بدفء الشمس التي أشرقت بعد الليل العاصف ... ووجدها

تضع أمامها كراسةً صغيرة وقلمًا، وهي تكتب في نقاط جميع المعلومات التي تجمَّعت حول الأحداث التي جرت.

وضع «أحمد» يده على شعرها الناعم الجميل، فالتفتت إليه ... وابتسما، وقال «أحمد»: ألم تُفكري في اعتزال عمل الشياطين بعد أحداث أمس؟

ابتسمت «إلهام» وقالت: إنني أُفكِّر في شيءٍ واحد.

أحمد: الحب؟

إلهام: إن ما حدث كله يُؤكِّد أن ما بين أيدينا هو قضية تهريب!

«كراولي» ... الغوريلا

انضمَّت «زبيدة» إلى «أحمد» و«إلهام»، وسمعت جملة «إلهام» الأخيرة فقالت: ما هي أدلَّتك؟

ردَّت «إلهام»: إن اليخت من أهم عوامل التهريب، والسيارة عامل ثانٍ، والاستماتة في الحصول عليها معناها أن فيها شيئًا مهرَّبًا ...

أحمد: ما هو هذا الشيء؟ لقد فحصنا السيارة فحصًا جيدًا فلم نجد فيها شيئًا. إذا كانت مخدرات مثلًا، فلا بد أن الكمية ضخمة تستحق كل هذه المطاردات وعمليات القتل. فإذا كانت ضخمةً فأين تختفي في السيارة؟! وإذا كان تهريب ذهب، فهو مثل المخدرات، لا بد أن يكون كميةً ضخمةً لتستحق كل هذه المخاطرات.

إلهام: ألم يخطر ببالك الماس؟

أحمد: الماس! معقول جدًّا! ... فملء قبضة منه تُعتبر كميةً عظيمةً للتهريب، وعلى كل حال فإن الشياطين سيفكون كل مسمار في السيارة ... وهم خبراء بهذه العملية، ولا يخفى عنهم ولا فص واحد من الماس إذا كان موجودًا.

زبيدة: إن التهريب يمكن أن يُفسِّر شيئًا، ولكن ما رأيك في ذوي الوجوه الصفر؟ إن عصابات التهريب في مناطق مثل سنغافورة وهونج كونج تعمل في مناطقها، في جنوب شرق آسيا، ولكن لم يحدث من قبلُ أن وصلت عصابة منهم إلى العالم الخارجي حسب ما درسنا في المقر السري الرئيسي.

إلهام: معك حق، ولعلها حالة استثنائية.

أحمد: هناك شيء آخر. هذان الأمريكيان ... «كراولي» صاحب السيارة ... والآخر الذي حاول استلامها، هل هما من أعضاء عصابة ذوي الوجوه الصفر؟

إلهام: على العكس ... أعتقد أن العصابتَين تعملان إحداهما ضد الأخرى. وتصوَّر أن «كراولي» كان معه شيء مهرَّب، لعلها شحنة من الماس، حضر بها من إيطاليا إلى «بيروت»

... وكانت عصابة الآسيويين تتبعه ... وقتلوه في اليخت وبحثوا عن شحنة الماس ولكنهم لم يجدوا شيئًا، وعرفوا أنه أودع سيارته عندنا، فحاولوا سرقتها.

أحمد: ودور الأمريكي الآخر؟

إلهام: إنه زميل «كراولي».

هزَّ «أحمد» رأسه قائلًا: لا بأس بهذا التفسير ... المهم إذا كان الصراع يدور حول شحنة ماس مهرَّبة، فأين هذا الماس؟

إلهام: لا أدري. وما دام ذوو الوجوه الصفر، والأمريكي الثاني يحاولون الحصول على السيارة؛ فالماس في السيارة.

مضى الوقت، وصعد الشياطين الخمسة من الجراج بما فيهم «قيس» الذي أعلن أن الرجل الأمريكي لم يأتِ ... وقال الشياطين الذين تولَّوا فك السيارة «البونتياك»، أن لا شيء فيها حتى الآن بعد أن انتهوا من فك العجلات والرفارف وأجزاء أخرى ... وإنهم سيُواصلون العمل بعد الغداء.

استمرَّ العمل في فك السيارة بعد الغداء، وحتى موعد إغلاق الجراج. كانت السيارة قد أصبحت كومةً من الصاج والصواميل والمسامير وقِطع الموتور، دون أن تظهر شحنة الماس ... التي توقَّعت «إلهام» وجودها.

وعندما جلس الشياطين للعشاء، ران جو من الصمت والضيق عليهم جميعًا ... فهذه أول مرة يُصبحون هدفًا للهجوم ... وقد كانوا دائمًا هم المهاجمين ... وهذه أول مرة يشتبكون في مغامرة لا يجدون طرقًا للتحرُّك فيها، بل عليهم انتظار هجوم آخر ليردُّوه ... ولكن عندما دقَّت الساعة التاسعة بدأ نشاط هام يدب في المقر السري ... فقد تلقَّوا تقريرًا من رقم «صفر» يُلقي بعض الضوء على الأحداث الغريبة التي جرت لهم.

وجلست «إلهام» تقرأ التقرير.

من رقم «صفر» إلى «ش. ك. س»

إن «ف. كراولي» هو أحد الأسماء العديدة التي يستخدمها رجل العصابات الأمريكي الرهيب «أوجو نيتش»، الإيطالي الأصل والذي يُشتهر بلقب الغوريلا. وقد هاجر «نيتش» إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٣٥م، حيث اشتغل في عدة أعمال بسيطة قبل أن يرتكب أول حادث سرقة له، ودخل السجن. وعندما خرج عمل على أرصفة نيويورك، وقام بدور الفتوَّة الذي يضرب معارضي عصابة «السراويل السوداء»، مستخدمًا قوَّته الهائلة ومنظره المنفِّر الغريب ... ثم انفرد

بالعمل وحده بعد أن جمع حوله بعض صغار اللصوص. وفي سنة ١٩٤٥م، بعد انتهاء الحرب، اتُّهم في جريمة قتل واختفى بعد ذلك ليظهر في شيكاغو. وبعد مطاردة طويلة استطاع رجال البوليس القبض عليه وتقديمه للمحاكمة، حيث قضى في السجن ١٢ عامًا، ثم أُفرج عنه، وافتتح متجرًا لبيع وشراء الأشياء القديمة ... وفي الواقع أن هذا كان ستارًا لإخفاء عمله الأصلي، وهو شراء ما يسرقه اللصوص بأثمان بخسة ... ثم بيعه بعد ذلك.

واتسعت دائرة أعماله، وبدأ يتخصَّص في شراء وبيع الأشياء الثمينة فقط، مثل الآثار النادرة والماس والتحف واللوحات، مستخدمًا في ذلك شبكةً واسعةً من العملاء في مختلِف عواصم العالم ... ومنذ شهر تقريبًا اختفى «نيتش» من الولايات المتحدة إلى جهة غير معلومة، ثم ظهر في إيطاليا حيث يقال إنه كان وراء صفقة ضخمة. ولوحظ أنه كان يُحيط نفسه في إيطاليا بحراسة قوية ... وظلَّ في إيطاليا فترة، ثم اشترى يختًا وغادر نابولي إلى جهة غير معلومة، حتى عُثر عليه قتيلًا في اليخت أول أمس في ميناء «بيروت».

وسكتت «إلهام» لحظات، ثم قرأت:

من المؤكَّد أن مصرع «نيتش» له علاقة بالصفقة الكبيرة التي تحدَّثوا عنها في إيطاليا، وقد لوحظ أنه في الأيام الأخيرة قابل عددًا من الآسيويين في القصر الذي كان ينزل فيه في نابولي قبل أن يختفي.

ثم قالت «إلهام»: انتهى التقرير.

أحمد: إنه تقرير هام. ما هي استنتاجاتكم؟

هدى: إنني لا أستنتج، ولكن أسأل ... لماذا جاء الغوريلا إلى «بيروت»؟

زبيدة: ليست هناك إلَّا إجابة واحدة؛ إن الصفقة الكبيرة كانت هنا ... في «بيروت».

هدى: إذن المطلوب تتبُّع خطوات الغوريلا منذ أن وصل إلى ميناء «بيروت» حتى مصرعه؛ حتى يمكن الاستدلال على مكان هذه الصفقة، أو على الأقل المشتركين فيها.

أحمد: إنها مهمَّة رجال الشرطة اللبنانية ... فلْنطلب من رقم «صفر» هذه المعلومات ...

وقبل أن ينتهي «أحمد» من جملته تقريبًا، كان صوت صفير جهاز اللاسلكي المتقطِّع والنور الأحمر في الصالة، يدل على أن رقم «صفر» يرسل تقريرًا ... وأسرعت «إلهام» إلى

غرفة اللاسلكي ... وغابت فترة، ثم عادت قائلة: إن رقم «صفر» يقرأ أفكارنا أو يتصنَّت علينا؛ لقد أرسل كل المعلومات المتعلقة بوصول «كراولي» الغوريلا إلى «بيروت» ومصرعه.

ومرةً أخرى أخذت تقرأ:

وصل «نيتش» أو «كراولي» أو الغوريلا إلى ميناء «بيروت» في الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة الأحد ... وكان معه على اليخت ثلاثة رجال كلهم يحملون جوازات سفر إيطالية، كما هو ثابت بسجلات الميناء، وغادر «كراولي» اليخت وحده ... وقضى الليل في فندق «هوليداي إن» الضخم المطل على الميناء. وكان يحمل حقيبةً صغيرة. وفي الصباح استأجر «كراولي» سيارة «بونتياك» ذهبية اللون لمدة أسبوع، وقد شوهدت السيارة تتجوَّل في الجبل في مناطق متعدِّدة ... وقد زار «كراولي» مغارة «جعيتا»، وقضى هناك بعض الوقت، ثم استأنف تجوُّله، حيث شوهد يتناول الطعام في مطعم «الديك الذهبي» ... وفي المساء عاد إلى اليخت ولم يشاهَد بعد ذلك إلَّا بعد موته.

رشفت «إلهام» من كوب الشاي ثم عادت تقرأ:

رجال الشرطة يبحثون الآن عن الرجال الثلاثة الذين كانوا معه.

وقالت «إلهام»: انتهى التقرير.

ساد الصمت لحظات، ثم قال «أحمد»: اليخت ... «الهوليداي إن» ... الجبل ... المطعم ... مغارة «جعيتا» ... السيارة ... في أحد هذه الأماكن أخفى «كراولي» الشحنة الهامة التي تدور حولها كل هذه الأحداث.

عثمان: يمكن أن نحذف اليخت؛ فقد قال رقم «صفر» في تقريره الأول إنه فُتِّش بعناية، والسيارة لأننا حوَّلناها إلى كوم من المسامير والصواميل دون أن نجد شيئًا. عندنا فندق «الهوليداي إن»، والجبل والمطعم، ومغارة «جعيتا».

إلهام: إنك تتحدَّث عن الجبل كأنه حديقة صغيرة يمكن البحث فيها. أمَّا مغارة «جعيتا» فأين يُخفي شحنته الثمينة فيها؟ الحقيقة أن المكان الوحيد المعقول هو السيارة ... يخفي الشحنة في مكان خفي منها، ثم يضعها في جراج حيث لا يشك أحد.

قال «فهد»: ولكن يا «إلهام» ... السيارة ليس فيها شيء!

قيس: ما رأيكم في الفندق الكبير؟

أحمد: ممكن. ما رأيكم أن يقضي أحدنا ليلةً في الفندق الفخم؟

صاح الشياطين في نفَس واحد: موافقون!

ابتسم «أحمد» قائلًا: واحد فقط من فضلكم، ويجب أن يأخذ نفس الغرفة التي نزل فيها «كراولي».

باسم: هذه مسألة سهلة. إنني أعرف هناك صديقًا يمكنه أن يدلَّنا.

أحمد: في هذه الحالة عليك أن تقضي الليلة يا «باسم» في فندق «الهوليداي إن». وخذ معك طبعًا كل الأدوات التي تُساعدك في البحث عن هذه الشحنة التي لا نعرف ماذا بها.

قام «باسم» فورًا فأعدَّ حقيبةً بها بعض الملابس، ودخل في غرفة الأدوات حيث يُوجد كل شيء من المدافع الرشَّاشة إلى الخناجر، إلى المفاتيح المصطنعة. وأخذ حقيبةً صغيرةً بها أدوات دقيقة تفتح كل شيء ... وبعد دقائق كان يُغادر المقر السري ... بينما واصل بقية الشياطين اجتماعهم ... وقد قسَّموا العمل بينهم لليوم التالي على أساس البحث في كل مكان تردَّد عليه «كراولي» الغوريلا.

عندما خرج «باسم» من المقر السري اختار سيارةً عاديةً من سيارات الشياطين، ثم دار دورةً واسعةً في «بيروت» لتضليل من يمكن أن يتبعه، ثم أخذ طريقه إلى «الهوليداي إن». وعندما أشرف على الفندق الفخم أحسَّ بشيء من التوتُّر لا يدري سببه ... ولكنه في النهاية دخل إلى قاعة الاستقبال الضخمة. وعندما وقف يتحدَّث مع صديقه عن «كراولي»، قال الصديق مندهشًا: لا أدري سرَّ الإقبال على هذا الجناح!

باسم: لست أفهم.

الصديق: لقد نزل به أول أمس رجل أمريكي بعد أن سأل عن «كراولي»، وعن الجناح الذي فيه.

باسم: شيء مدهش!

لم يكن الصديق يعلم حقيقة «باسم»، ولا حتى كان يعرف اسمه الحقيقي؛ فقد كان يعرفه باسم «وليد» ... وأنه من سوريا.

كان الجناح في الدور السادس عشر ويطل على الميناء. ولم يكد «باسم» يدخل الحجرة حتى أغلق الباب من الداخل، ثم فتح حقيبة الأدوات الدقيقة وجلس على الفراش، وشمل المكان بنظرة فاحصة.

كان الجناح مكوَّنًا من غرفة نوم واسعة فاخرة الرياش، وغرفة أصغر للاستقبال، ودورة مياه ...

وقال «باسم» في نفسه: عشرة أماكن على الأقل يمكن أن تُخفى فيها شحنة ماس؛ فمهما كانت كبيرةً فلن تزيد عن حجم كتاب متوسِّط ... والآن من أين أبدأ؟

قرَّر «باسم» أن يبدأ من دورة المياه ... وشمَّر عن ساعدَيه ... وأخرج أدواته وأخذ يبحث ... واستغرق ساعةً كاملةً في فحص كل شيء، وتذكَّر الأمريكي الذي نزل بالجناح قبله، هل يا تُرى فحص كل ذلك جيدًا؟ ... إنه بالقطع ليس خبيرًا مثل «باسم» الذي درس هذه المهمَّات في المقر السري. بعد ساعة من الفحص الدقيق، وفكِّ كل وصلات المياه والحنفيات، وحتى الدق على بلاط الأرضية، كان متأكِّدًا أن «كراولي» لم يُخفِ شيئًا في دورة المياه.

وخرج إلى غرفة الصالون وأمسك بسمَّاعة التليفون وطلب الرقم السري في مقر الشياطين، وردَّت عليه «زبيدة» فقال: إنني في الدور السادس عشر في نفس الجناح الذي نزل به «كراولي». لا شيء في دورة المياه ... وسأبدأ الآن فحص بقية المكان ... هل من أخبار؟

زبيدة: لا شيء ... ومهمتكَ تنتهي في الصباح، وتعود إلى المقر ... وسنكون قد خرجنا للبحث في بقية الأماكن. هل تبعك أحد؟

باسم: لا أظن ... وإذا كان أحد قد تبعني، فالأغلب أنني ضلَّلته.

وقد كان «باسم» واهمًا ... ففي نفس الطابق على بُعد بضعة أمتار منه كان هناك رجلان ينتظران الوقت المناسب للتفاهم مع «باسم» الذي وضع السمَّاعة ... ثم أخذ يمشي مفكِّرًا بين المقاعد ناظرًا بين فترة وأخرى من الشرفة على مرفأ «بيروت» وهو يُفكِّر ... أين يمكن أن يكون «كراولي» قد أخفى الشحنة الثمينة؟!

المدينة الصامتة

عندما أشرفت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل، كان «باسم» قد فتَّش كل ثقب في جناح «كراولي» ... السرير ... فكَّه ثم أعاد تركيبه ... المراتب جسَّها كلها بإبرة صلب طويلة. الدولاب، المنضدة، الكراسي. دقَّ على جميع أخشاب الأرضية. صعد وفتَّش النجفة. لم يترك شيئًا لم يفحصه كأنه سيُجري له عمليةً جراحية، دون أن يجد أي شيء.

وقال «باسم» لنفسه: إن شحنة الماس هذه وهم ... ولعل «كراولي» قد حضر لأخذها من «بيروت»، وقد عكسنا نحن القضية فتصوَّرنا أنها معه ... ولعله لم يحصل عليها، وقضى نحبه قبل أن تصل إلى يدَيه.

بهذا حدَّث «باسم» نفسه وهو يخلع ملابسه، ثم يأخذ حمَّامًا ساخنًا ويأوي إلى فراشه ويُطفئ النور، ثم يستسلم للنوم فورًا بعد إرهاق البحث الطويل.

مضت نصف ساعة، ثم فُتح باب في الدهليز الطويل الذي يقع به جناح «كراولي» ... وظهر رجل قصير القامة. أطل في الدهليز وانتظر قليلًا، ثم أشار لزميله، وانطلق الاثنان يمشيان بهدوء وحذر ... وتوقَّف أحدهما عند أبواب المصاعد ... بينما تقدَّم الثاني حتى وصل إلى باب جناح «كراولي» ... وبسرعة مدَّ يده في جيبه وأخرج محفظةً صغيرة، فتحها واختار بعناية مفتاحًا متعدِّد الزوايا، ثم ركع على ركبتَيه ووضع المفتاح في قفل الباب، وأخذ يُديره بضع مرات وهو ينصت بتركيز شديد ... ثم أشار إلى زميله فتقدَّم مسرعًا هو الآخر ... ودفعا الباب، ثم أغلقاه خلفهما ... واجتازا الصالون الصغير الملحق بغرفة النوم، ثم أضاء الآخر النور.

كان «باسم» ملتحفًا بالأغطية رغم التدفئة المركزية في الفندق.

وعندما أُضيء النور استيقظ «باسم» على الفور، ولكنه ظلَّ مغمض العينَين ... فقد أدرك رغم اللحظات السريعة التي ارتبك فيها تفكيره أن ثمة أشخاصًا غرباء قد دخلوا

غرفته ... وأنه في الأغلب لن يُقتل فورًا ... ولكن ذلك قد يحدث فيما بعد ... وفتح جفنَيه المطبقَين قليلًا جدًّا ليعرف عدد المهاجمين. كانا شخصَين من ذوي الوجوه الصفراء ... وتذكَّر خطف «إلهام» ... وتخدير «قيس» ... وتساءل عمَّا سيحدث له ... خطف، تخدير، اختطاف، وشمَّ رائحة عطر قوي ... وأدرك أنهم نفس الأشخاص.

ظل «باسم» متظاهرًا بالنوم وذهنه يعمل بسرعة. إن معه مسدسًا ولكن للأسف في الحقيبة، وعليه أن يدفع ثمن غلطته وينتظر ما سيحدث له. كل ما تمنَّاه ألَّا يُخدِّراه بالحقن ... فرغم أنه كان مغامرًا شجاعًا مرَّ بكثير من التجارِب القاسية ... إلَّا أنه كان يخاف الحقنة ... منذ أن كان طفلًا صغيرًا.

مرَّت دقيقة واحدة، وسمع «باسم» حركة الرجلَين في الغرفة. كانا يُفتِّشان حقيبته، ومن المؤكَّد أنهما أخذا المسدس ... ومضت لحظات أخرى، ثم اقترب أحدهما من الفراش ومدَّ يده ... وهزَّ كتف «باسم» قائلًا في لغة فرنسية ركيكة ولكن — لدهشة «باسم» — بأسلوب مهذب جدًّا: سيدي استيقظ من فضلك.

تظاهر «باسم» أنه مستغرق في النوم ليكسب فرصةً أطول للتفكير، وتكرَّرت الحركة السابقة. هزة الكتف وجملة «سيدي ... استيقظ من فضلك».

فتح «باسم» عينَيه ... وكان يتظاهر بالدهشة ... ولكنه أدرك أنهما يعرفان حقيقته ... وأن أي حركات تمثيلية لا تُجدي ... فجلس في فراشه ونظر إليهما ... ولاحظ أنهما يلبسان ملابس قديمةً لا تتناسب مع رجال العصابات، خاصةً ممن يعملون في التهريب وصفقات الماس.

قال «باسم» بالفرنسية: إنني رهن إشارتكما.

قال أحدهما: نأسف لإزعاجك يا سيدي، ولكن لنا معك حديث هام.

كاد «باسم» يضحك ... فهذه أول مرة في حياته يرى أو حتى يسمع عن لصوص مسلَّحين يقتحمون الغرف بالمسدسات ... ويتحدَّثون بهذه اللهجة الرقيقة المهذَّبة.

عاد الرجل يقول: سيدي ... إننا نستحلفك بكل ما تُؤمن به أن تصدقنا القول ... فنحن في مهمَّة عاجلة نُريد أن ننتهي منها.

هزَّ «باسم» رأسه مندهشًا وقال: إنني رهن إشارتكما.

الرجل: إننا يا سيدي نبحث عن شيء تعرفه ... ونحن نسألك سؤالًا واحدًا محدَّدًا ... هل وجدتم هذا الشيء؟

باسم: أؤكد لك يا سيدي أنني لا أعرف عن أي شيء تتحدَّث.

تصلَّب وجه الرجل وقال: كنت أتمنَّى أن تكون صادقًا، ولكن ما تقوله الآن شيء لا يُصدَّق ... فنحن متأكِّدون أنكم تعرفون هذا الشيء.

باسم: أُكرِّر لك يا سيدي ... إنني وزملائي ... لا نعرف عن أي شيء نبحث بالضبط ...

بدت الدهشة على وجه الرجل؛ فقد كان واضحًا من أسلوب «باسم» أنه يقول الصدق ... وقال الرجل: لا تعرفون عن أي شيء تبحثون؟!

باسم: لا ... إننا فعلًا تعرَّضنا للاختطاف والتخدير، وللقتل أيضًا كما تعرف، دون أن نعرف لماذا يحدث كل هذا!

نظر الرجل إلى زميله، وتبادلا حديثًا سريعًا بلغة لا يعرفها «باسم» وإن تصوَّر أنها اليابانية أو الصينية ... ثم التفت الرجل إلى «باسم» قائلًا: هل تعرفون «كراولي»؟

باسم: نعم. تشرَّفنا بمعرفته عندما جاء إلى الورشة عندنا ليُودِع سيارته في الجراج ... ولم نرَه بعد ذلك.

الرجل: حسن يا سيدي. إننا نُريد منكم فقط أن تُسلِّمونا السيارة التي أودعها عندكم.

باسم: هذه السيارة التي كدتم تقتلونا من أجلها؟!

الرجل: آسف جدًّا يا سيدي على ما حدث ... لقد حذَّرناكم أن الشر يُقابَل بالشر، والخير بالخير، كما قال معلِّمنا «بوذا».

باسم: وماذا تُريد من السيارة؟

الرجل: نُريد أن نُفتِّشها بحثًا عن ذلك الشيء.

باسم: أؤكد لك يا سيدي أن الشيء الذي تبحثون عنه ليس موجودًا بالسيارة.

الرجل: كيف تقول هذا وأنت لا تعرف هذا الشيء؟!

باسم: لأننا فككنا السيارة قطعةً قطعة، ونحن متخصِّصون في السيارات، ولم نجد فيها شيئًا مطلقًا غير ما يُوجد في أي سيارة ... الآلات وغيرها.

بدا الغم واليأس على وجه الرجلَين، وعادا يتحدَّثان بلغتهما الغريبة لحظات، ثم قال الرجل: إننا يا سيدي أشخاص بؤساء محكوم علينا بالموت إذا لم نعثر على هذا الشيء.

باسم: ألا تقول لي فقط ما هو هذا الشيء الذي تبحثون عنه؟

الرجل: ما دمت لا تعرف يا سيدي ... فمن الأفضل لك أن تظل جاهلًا به، وإلَّا حلَّت عليك اللعنة كما حلَّت على «كراولي».

باسم: أنت حر يا سيدي أن تخفي سرك. وكل ما أرجوه أن تتأكَّدوا أننا لا نعرف هذا الشيء ... ولم نجده، وإن كنا سنبحث عنه بنفس الحماس الذي يحملكم على البحث عنه.

الرجل: لماذا يا سيدي؟!

باسم: ما دام هذا الشيء قد عرَّضنا للقتل وغيره كما قلت لك، فمن واجبنا أن نعرف ما هو على الأقل.

الرجل: وإذا وجدتموه، ماذا تفعلون به؟

باسم: نحن لا نأخذ شيئًا لا يخصُّنا ... سنُعيده إلى أصحابه.

الرجل: مهما كانت قيمته؟

باسم: مهما كانت قيمته!

الرجل: هل أنت متأكِّد يا سيدي؟

باسم: أُعطيك كلمتي عن نفسي وعن زملائي.

عاد الرجلان يتحدَّثان ... وطال حديثهما هذه المرة ... ثم التفت الرجل إلى «باسم» وقال: في هذه الحالة يا سيدي ... وإذا أعطيتني كلمتك كرجل شريف ... فسوف أقول لك ما هذا الشيء الذي يُمثِّل السلام، وتدور حوله كل أحداث العنف التي لا تعرف أنت منها إلَّا القدر اليسير ... ولكن لي مطلب آخر؛ ألَّا يعلم أحدٌ مطلقًا، سواء في دوائر الشرطة أو الصحافة ما أقوله لك، وإلَّا تعرَّضنا كما قلتُ لك الآن للموت ... وربما لما هو أفظع من الموت.

ازدادت دهشة «باسم» وقال: أعدك بذلك أيضًا.

جلس الرجل وتبعه زميله وقال: هل تسمع عن مدينة الصمت أو المدينة الصامتة يا سيدي؟

ردَّ «باسم»: لا ... للأسف.

الرجل: ليس ثمَّة ما يدعو للأسف يا سيدي ... فهي مدينة صغيرة جدًّا، بعيدة جدًّا، وقليل خارج بلادنا من يعرف عنها شيئًا. إن هذه المدينة المقدَّسة في جنوب بورما، حيث صلَّت يومًا روح المعبود «بوذا» واستمتعتْ بالصمت الذي يرين على هذه المدينة.

وسكت الرجل لحظات، ثم عاد يقول: وحيث صلَّت روح المعبود ... أُقيم معبد صغير ولكنه من أهم معابدنا نحن البوذيين ... وهو رمز لكل ما هو مقدَّس في حياتنا.

ووضع الرجل مسدسه في جيبه، ثم استسلم لنوع من تركيز الذهن الخارق، ثم قال: هل تسمع صمت مدينتكم الآن يا سيدي؟

ردَّ «باسم»: «بيروت»! لا أظن أنها تصمت أبدًا.

الرجل: في مثل هذه الساعة يا سيدي كانت النار المقدَّسة تشتعل في خشب الصندل حول تمثال الإله المعبود.

وتهدَّج صوت الرجل بالألم العميق وهو يقول: ولكن هذا التمثال الذي ظل في مكانه أكثر من ألف سنة ... لم يعد موجودًا في مكانه يا سيدي. إن النار المقدَّسة انطفأت منذ ثلاثة شهور.

فجأةً أدرك «باسم» ما الذي يبحث عنه هؤلاء الآسيويون. إنهم لا يبحثون عن شحنة من الماس، إنهم يبحثون عن إلههم ذاته ... عن تمثال هذا الإله المقدَّس. ونظر إلى الرجل وقال: وهذا التمثال هو ما تبحثون؟!

وانحدرت دموع الرجل وهو يقول: نعم يا سيدي ... تمثال الإله «بوذا» الذي صُنع من مائة جوهرة كلٌّ منها جاءت من أرض مقدَّسة.

صمت الرجل ... وبدت «بيروت» صامتة ... وبدا لـ «باسم» أن الدنيا كلها قد صمتت أمام كلمات الرجل الحزينة التعسة.

في الفجر ... دون هدف

مضت لحظات حزينة، ثم قال «باسم»: ولكن كيف وصل تمثال «بوذا» إلى «بيروت»؟!

قال الرجل: إنها قصة طويلة يا سيدي ... فقد استطاعت عصابة أن تسرق التمثال من قاعدته. في ليلة كنا نُقيم فيها قُدَّاسًا في الغابة، وعندما عدنا في الصباح نحن حراسَ معبد الإله، فوجئنا بالكارثة ... وكنا متأكِّدين أنه إذا علم الشعب بسرقة التمثال فسوف تقوم ثورة ضارية ... وسيُحكم علينا بالموت حرقًا ... وهكذا بدأنا مطاردة العصابة ... ونحن قوم فقراء؛ فكانت المطاردة بالنسبة لنا عمليةً شاقَّة ... وقد تنقَّلنا في مختلِف قارَّات العالم خلف التمثال، حتى علمنا أن «كراولي» قد اتفق على شرائه من العصابة في إيطاليا ... وعندما وصلنا إلى هناك علمنا أن «كراولي» قد غادر إيطاليا ومعه التمثال إلى جهة غير معلومة. وبعد بحث شاق، علمنا أنه وصل إلى «بيروت» ... فجئنا خلفه ... وتعقَّبناه، ولكنه استطاع الإفلات منا.

باسم: ولكنكم قتلتموه!

الرجل: لسنا نحن يا سيدي ... إننا لم نكن لنقتله أبدًا لأننا لا نقتل أحدًا ... رغم أنه ورجاله قتلوا زميلًا لنا في الجبل.

استغرق «باسم» في التفكير. إن الآسيويين لم يقتلوا «كراولي»، فمن الذي قتله؟! هناك احتمالان لا ثالث لهما ... إمَّا أفراد عصابته الثلاثة ... وإمَّا أن يكون المشتري قد اختلف معه على الثمن فقتله.

قال «باسم» وهو ينظر إلى ساعته: إن الأمور قد اتضحت إلى حدٍّ بعيد ... ولست أعدكم بشيء محدَّد ... ولكني سأرجع إلى زملائي أولًا ... وأغلب الظن أنهم سيوافقون على أن نُساعدكم في استرداد التمثال.

قال الرجل بضراعة: إنني أتوسَّل إليك أن تُقنعهم بذلك يا سيدي ... لقد ضاع وقت كثير، ولن نستطيع أن نكتم عن شعبنا ضياع التمثال أكثر من هذا.

باسم: وكيف أتصل بكم؟

قال الرجل: لقد استأجرنا منزلًا صغيرًا في الجبل، ومعنا الكاهن «تاكانا» الذي يُصلِّي ليل نهار من أجل استعادة التمثال ...

باسم: إذن تستطيع إبلاغ «تاكانا» بأننا سنُساعدكم، وسآخذ عنوانكم ورقم التليفون لأتصل بكم إذا عثرنا على التمثال.

الرجل: ألا نُساعدكم يا سيدي؟

باسم: سنتصل بكم إذا احتجنا لمساعدة!

الرجل: إننا باسم الإله «بوذا»، وباسم شعبنا نشكركم يا سيدي على كل ما ستفعلونه من أجلنا؛ فنحن نشعر باليأس، ونظن أن تمثال الإله لن يعود ... وإذا شئت الاتصال بنا فاطلبني ... إنني عبدك المتواضع «سوفانا» ...

انحنى الرجلان لـ «باسم» في تحية خاشعة، ثم انسحبا بهدوء، وأغلقا الباب خلفهما، وظل «باسم» جالسًا في فراشه واقعًا تحت تأثير القصة الغريبة، والعطر الغامض الذي تركه الرجلان خلفهما.

وبعد فترة من التفكير قرَّر أن يُغادر فراشه، ويذهب إلى مقر الشياطين السري ... وترك حقيبته على أن يعود لأخذها فيما بعد.

وعندما وصل «باسم»، وجد «عثمان» يقوم بنوبة حراسة في الدور الأول، توقُّعًا لهجوم جديد ... ودُهش «عثمان» لعودة «باسم» وقال: هل عثرتَ على شيء؟!

باسم: عثرتُ على تفسير لهذا اللغز العجيب.

عثمان: ما هو الشيء الذي يدور حوله الصراع ... هل هو شحنة ماس فعلًا؟!

باسم: إنها شحنة ماس فعلًا ... مائة ماسة ... ولكن القيمة الحقيقية ليست في الماس ذاته ... ولكن في التمثال الذي صُنع منه.

عثمان: أي تمثال؟

باسم: تمثال «بوذا».

وروى «باسم» ما سمعه من ذوي الوجوه الصفراء. وعندما انتهى من قصته قال «عثمان»: معك حق أن قاتل «كراولي» لا بد أن يكون واحدًا من اثنين؛ إمَّا عصابته لخلاف بينهم، وإمَّا المشتري.

باسم: المهم الآن، ما هي النقطة التي نبدأ منها؟

عثمان: نقطة البداية بالطبع هي البحث عن التمثال في الأماكن التي تردَّد عليها «كراولي» ... وما دام اليخت قد تمَّ تفتيشه، وكذلك الفندق، والسيارة، فلم يبقَ إلَّا الجبل ... وكما قالت «إلهام»: إن الجبل كلمة كبيرة جدًّا ... فكيف نُضيِّق نطاق البحث؟

باسم: هل تتخيَّل «كراولي» رجل العصابات المدرَّب يذهب إلى الجبل، ويحفر حفرةً مثلًا ويُخفي التمثال فيها؟ هل من المعقول أن يقوم رجل بهذه القدرات الرهيبة بترك تمثال لا يُقدَّر بثمن في مكان يمكن لأي شخص أن يعثر عليه ... إنني أشك كثيرًا في هذا يا «عثمان»!

عثمان: ما هو البديل إذن؟

باسم: لا أدري. لقد نسينا مغارة «جعيتا».

عثمان: إنك تنسى أنها مكان يدخله عشرات بل مئات الأشخاص كل يوم ... وهو بطبيعته الصخرية لا يمكن إخفاء شيء فيه؛ فمن الصعب الصمود على الجوانب الصخرية والحفر فيها ووضع التمثال.

باسم: لنترك المناقشة للصباح. لقد نمت فترةً في الفندق وسأتسلَّم الحراسة، وتستطيع أنت أن تذهب لتنام.

عثمان: لقد تسلَّمت الحراسة منذ ساعة فقط، وقد نمت منذ أول الليل، ولا أعتقد أنني سأنام مرةً أخرى هذه الليلة.

نظر «باسم» في ساعته وقال: على كل حال لم يبقَ إلَّا القليل؛ فالساعة قد تجاوزت الرابعة.

عثمان: إنني لا أتوقَّع هجومًا جديدًا الليلة على المقر السري. تعالَ نخرج إلى الجبل ندور حول الأماكن التي تردَّد عليها «كراولي» لعلنا نعثر على شيء يكسر هذا الجمود الذي يُسيطر على الموقف.

باسم: سأتصل بمقر الآسيويين؛ لعل عند «سوفانا» معلومات محدَّدة عن الأماكن التي تردَّد عليها «كراولي».

واتصل «باسم» بالرقم الذي تركه له «سوفانا»، وردَّ عليه صوت هادئ قائلًا: لقد تحدث إلينا «سوفانا» من الفندق وأخبرنا بالاتفاق الذي تمَّ بينه وبينكم ... وقال إنه سيعود فورًا هو وزميله، ولكنه حتى الآن لم يعد.

فكَّر «باسم» قليلًا، ثم سأل: هل عندكم معلومات عن الأماكن التي كان يتردَّد عليها «كراولي»؟

قال ذو الصوت الهادئ: نعم، كانت كلها حول مغارة «جعيتا».

باسم: بالمناسبة، ما هو حجم التمثال؟

الرجل: طوله ٢٥ سنتيمترًا يا سيدي.

وضع «باسم» السماعة، ثم قال لـ «عثمان»: «سوفانا» وزميله لم يعودا بعدُ إلى مقر الآسيويين، وأعتقد أن ثمة شيئًا قد حدث. وقد كان «كراولي» يتردَّد على أماكن حول مغارة «جعيتا».

عثمان: سأُحضر سلاحًا، وسنذهب نتجوَّل هناك.

أسرع «باسم» فكتب مذكرةً سريعةً لـ «أحمد» بما حدث في الفندق، ثم ركب هو و«عثمان» سيارةً انطلقت بهما في ضوء الفجر الشاحب إلى الجبل. لم تكن السماء تُمطر، ولكن ضبابًا كثيفًا كان يُغطِّي جبال لبنان العالية.

قاد «عثمان» السيارة بهدوء، وجلس «باسم» بجواره هادئًا يُفكِّر. وبعد نصف ساعة أشرفا على المنطقة التي تقع بها المغارة الشهيرة ... وأخذا يدوران، وفجأةً صاح «باسم»: سيارتنا المسروقة!

وأشار إلى جانب منخفض من الجبل. وكانت السيارة التي سُرقت من «قيس» بعد تخديره تقف مفتوحة الأبواب تحت مجموعة من الأشجار.

قال «عثمان»: لقد أخذها الآسيويون!

باسم: نعم ... فهم فقراء ... وقد سرقوها مضطرين لاستخدامها في مطاردة «كراولي» وعصابته.

عثمان: لعلَّ «سوفانا» وزميله كانا بها!

باسم: هذا ما أُرجِّحه.

نزل «عثمان» و«باسم» مسرعَين، وأخرج «عثمان» كرته المطَّاط الشهيرة، بينما تسلَّح «باسم» بمسدس، واقتربا من السيارة ... وعلى ضوء الفجر الشاحب ... كان واضحًا أن إحدى عجلات السيارة مفرَّغة من الهواء، وعندما انحنى «باسم» عليها قال: لقد أطلق عليها الرصاص.

فحص الصديقان السيارة بسرعة ... لم يكن هناك شيء غير عادي سوى الرصاص الذي أصاب العجلة. ووقفا ينظران هنا وهناك، ومن بعيد بدا ضوء فيلا منعزلة، وقال «باسم»: تعال نتجوَّل حول هذه الفيلا. إن وجود ناس مستيقظين في هذه الساعة المبكِّرة مسألة تدعو إلى النظر.

واتجها معًا إلى الفيلا ... ولم يكادا يقتربان حتى اشتمَّا رائحة الخطر ... كانت هناك سيارتان بجوار الفيلا ورجل يقف عند باب الحديقة، وقد أمسك بين يدَيه رشَّاشًا، وهمس «باسم»: أظننا وقفنا على شيء.

واقتربا بهدوء من الفيلا. وفي الصمت العميق الذي يرين على الجبل في هذه الساعة المبكِّرة من الصباح، سمعا صوت نقاش حادٍّ يصدر من الفيلا. لم يتبيَّنا الكلمات، ولكن تبيَّنا أسلوب الحوار الخشن ... وقال «عثمان»: من الأفضل أن نقترب أكثر!

باسم: هل تستخدم كرتك العزيزة؟

أمسك «عثمان» بكرة المطاط الجهنمية، وأخذ يهزُّها، ثم انثنى إلى الخلف وأطلقها كالقنبلة، وسمعا صوت ارتطامها برأس الحارس، ثم صوت سقوطه على الأرض. وتوقَّفا قليلًا في انتظار ما سيحدث ... ولكن الصمت استمر ... كما استمرَّت أصوات الحوار الغاضب ...

اقتربا مسرعَين ولكن بحذر ... وسحبا الحارس الضخم جانبًا ووضعاه بين الحشائش الكثيفة ... وتناول «عثمان» كرته العزيزة، ولمعت أسنانه البيضاء وهو يبتسم.

اقتربا من الفيلا مسرعَين ... واختار «عثمان» نافذةً قريبةً ألصق أذنه بها ومضى يستمع، بينما كان «باسم» يُمسك بمسدسه يحرسه.

سمع «عثمان» صوتًا مهدَّدًا يقول: إنكما تعلمان أين أخفى «كراولي» التمثال.

ردَّ الرجل: لقد أقسمنا لك يا سيدي إننا لا نعرف ... وإذا كنا نعرف فلماذا لم نحصل على التمثال ... لقد كرَّرنا هذا عشرات المرات.

كان الرد مقنعًا ... ومع ذلك استمر الصوت المهدِّد يقول: لقد دخلتم جراج السيارات الذي وضع فيه «كراولي» السيارة «البونتياك» ... ألم يكن التمثال هناك؟!

الرجل: لا يا سيدي ... لقد سألتَنا عشرات المرات هذا السؤال وقلنا لك ... لا ...

ساد الصمت لحظات، ثم قال ذو الصوت المهدِّد: لعنة الله على «كراولي» هذا وعلى طمعه وشراهته. كان يُريد الاحتفاظ بأكثر النقود له، ولو كان عادلًا لما حدث شيء!

تدخَّل في الحديث صوت ثالث هادئ وناعم قائلًا: لقد انتهى أمر هذا التمثال بالنسبة لي، وسوف أُغادر لبنان غدًا ... فإن رجال الشرطة في لبنان يبحثون عن قاتل «كراولي» وعن قاتل الرجل الأصفر ... وأعتقد أنهم في النهاية سوف يصلون إلى هنا ... إنني لم أشترك في هذه الجرائم، وليس ثمة ما يدعو لبقائي أكثر من هذا!

قال ذو الصوت المهدَّد: أعطنا فرصةً أخرى يا «ديموريبه». لقد طفنا حول العالم بهذا التمثال اللعين ... وليس من المعقول أن نُضيِّع صفقة العمر بهذه الطريقة.

ديموريه: لقد تسرَّعتم بقتل «كراولي» ... وها هو قد مات وأخذ سره معه ... ولن نعرف أبدًا أين أخفى التمثال.

قال ذو الصوت المهدَّد: امنحنا يومًا آخر. إن التمثال لم يتبخَّر في الهواء وقد بحثنا كما بحث هؤلاء الآسيويون في أكثر الأماكن التي تردَّد عليها «كراولي» اللعين. ولم يبقَ سوى مكان أو مكانان، فأعطِنا فرصة.

لم يردَّ «ديموريه» على الفور ... ثم قال بعد لحظات: سأنتظر حتى آخر نهار الغد فإذا لم تُحضِروا التمثال فلن أنتظر دقيقةً واحدةً زيادة.

قال ذو الصوت المهدَّد: اتفقنا. سنُمضي هذا اليوم كله، والليل في البحث، وسنسلخ هؤلاء الصفر إذا لم نجد التمثال ... فلا بد أنه في حوزتهم.

ديموريه: هذا ليس شأني ... إنني تاجر وليس لي علاقة بما تفعلون ... ولو استمعتم إلى نصيحتي وقابلتموني في باريس لانتهى الأمر.

قال ذو الصوت المهدَّد: لقد كان هؤلاء القرود الآسيويون يتبعوننا، وقد اختار «كراولي» «بيروت».

وفجأةً أحسَّ «عثمان» بحركة باب يفتح ... فانبطح على الأرض ... وظهر رجل على باب الفيلا أخذ ينظر في الظلام، ثم صاح: «بوتشيني»!

أدرك «عثمان» أن الرجل يُنادي الحارس ... ونظر بحذر إلى حيث كان «باسم» ... فوجده قابعًا تحت شجرة ... وكان ضوء الفجر قد ازداد انتشارًا ... وأدرك أنهما في خطر ... وعاد الرجل يُنادي: «بوتشيني» ... أين أنت؟!

ولَمَّا لم يردَّ «بوتشيني»، سمع «عثمان» صوت أقدام تجري داخل الفيلا ... وصوت أسلحة تستعد للإطلاق ... فأشار لـ «باسم»، وتسلَّلا مبتعدَين، وسرعان ما كانت السيارة تحملهما إلى مقر الشياطين السري في «بيروت».

صلوات ... وبخور

اجتمع الشياطين الـ «١٣» جميعًا على مائدة الإفطار ... وكان «باسم» يتحدَّث طول الوقت يروي كل ما حدث، وقال مختتمًا حديثه: لقد رأينا أنا و«عثمان» أن ننسحب حتى نترك فرصةً لعصابة «كراولي» للبحث عن التمثال ... وسيكون من السهل انتزاعه منهم بعد ذلك.

ردَّ «أحمد»: لقد أرسلتُ تقريرًا بالمذكرة التي تركتَها يا «باسم» إلى رقم «صفر»، وأرجو يا «إلهام» أن تُرسلي تقريرًا آخر بالحوادث الأخيرة.

قيس: هناك احتمال سيئ ... ألَّا تعود العصابة إلى مقرِّها مرةً أخرى بعد اكتشاف ما جرى للحارس ... وبهذا نفقد أثرها مرةً أخرى.

ابتسم «عثمان» قائلًا: أعتقد أنهم لن يعرفوا ما حدث له بالضبط ... ولعلهم يتصوَّرون أن غصن شجرة وقع على رأسه. إن كُرَتي العزيزة لا تترك أثرًا!

أحمد: أُفضِّل على كل حال أن نضع خطةً للمراقبة نشترك فيها جميعًا. ستبقى «هدى» فقط للاتصال بها إذا استدعى الأمر بذلك. سيقف «قيس» في ورشة السيارات. سيقف «مصباح» في قسم الآلات الحاسبة ... ويبقى منا عشرة ... أربعة لمراقبة مقر العصابة ... ثلاثة لمراقبة مقر الآسيويين ... ثلاثة لمراقبة مغارة «جعيتا» ... وستستمر المراقبة طول اليوم ... وطول الليل ...

باسم: بالمناسبة هل يُقر الشياطين الـ «١٣» بالاتفاق الذي اتفقتُه مع الآسيويين بأن نردَّ لهم التمثال إذا حصلنا عليه؟

أحمد: نأخذ الأصوات.

وارتفعت الأيدي جميعًا بالموافقة ... وبعد الإفطار بدأت المجموعات تتقسَّم.

وقال «أحمد»: «إلهام» و«عثمان» وأنا لمراقبة المغارة ... «باسم» و«بو عمير» و«رشيد» و«ريما» لمراقبة مقر العصابة ... «فهد» و«زبيدة» و«خالد» لمراقبة مقر الآسيويين ... لتأخذْ كل مجموعة تسليحًا كاملًا وأجهزة لا سلكي ... تُلاحَظ تعليمات رقم «صفر» المشدَّدة ... لا اشتباك بالنهار حتى لا نلفت لنا الأنظار. إذا كان لا بد من اشتباك فيجب العودة فورًا إلى المقر بعد الانتهاء منه. الأسرى يُتركون مكانهم بعد استجوابهم.

بعد فترة قصيرة كانت ثلاث سيارات تحمل الشياطين ... كل مجموعة منهم إلى الجهة المتفق عليها. كان صباحًا غائمًا، وقد بدأت الريح تهب بشدة والسحب الكثيفة تتجمَّع في السماء، وقال «أحمد»: جو مناسب لنا؛ سوف تُمطر بعد قليل، ويقل عدد المتردِّدين على الجبل والمغارة.

انطلقت السيارات، وعندما وصلت إلى الجبل توزَّع الجميع في أماكنهم ... وبدأت الاتصالات اللاسلكية بينهم ... لا تحرُّكات مطلقًا في مقر العصابة ... لا تحرُّكات مطلقًا عند مقر الآسيويين ... لا شيء مريب حول مغارة «جعيتا». وبعد ساعات عادت الاتصالات اللاسلكية ... لا شيء جديد، الصمت يرين على مقر العصابة، وعلى مقر الآسيويين ... لا شيء عند مغارة «جعيتا».

وبدأ المطر يهطل كما توقَّع «أحمد» ... وأظلمت السماء تمامًا ... وبدا الجبل عاريًا موحشًا، وظل الشياطين في أماكنهم ... ومرَّت الساعات ... وفي كل اتصال كانت نفس المعلومات تتردَّد ... لا شيء ... لا شيء ... لا شيء ...

عندما أوشك مساء الشتاء المبكِّر على الهبوط، اتصل «بو عمير» بـ «أحمد» باللاسلكي قائلًا: أقترح أن نقتحم مقر العصابة. من غير المعقول أن ننتظر أكثر من هذا!

ردَّ «أحمد»: انتظر هبوط الظلام وتمسَّك بالصبر.

كان «أحمد» و«عثمان» و«إلهام» يضعون سيارتهم في مكان يُشرف من فوق الجبل على مدخل المغارة ... وطوال النهار لم يصل إلَّا عدد قليل جدًّا من الزوَّار، ثم غادروها أمام البرد والمطر، ولم يعد هناك أحد.

قال «أحمد»: سأذهب للحديث مع حُرَّاس المغارة؛ لعلني أسمع شيئًا عن «كراولي».

وغادر «أحمد» مكانه ونزل ... وسار في الطريق الطويل المؤدِّي إلى المغارة تحت المطر الغزير، وعندما وصل لم يجد إلَّا حارسًا واحدًا احتمى خلف كشك خشبي وجلس يُدخِّن في صمت ... وبعد أن حيَّاه «أحمد» قال: هل أنت في الحراسة منذ فترة طويلة؟

ردَّ الرجل: منذ أسبوع. لماذا تسأل؟

تردَّد «أحمد» لحظات، ثم قال: يقولون إن أحد السوَّاح الأمريكان قد غرق في المغارة.

مطَّ الحارس شفتَيه وقال: من قال لك هذا الكلام الفارغ؟! لم يغرق أحد أبدًا في مغارة «جعيتا»!

أحمد: هذا ما سمعته.

الحارس: لا يمكن ... وإلَّا قامت الدنيا ولم تقعد ... ما اسم هذا الرجل؟

أحمد: «كراولي».

الحارس: لا «كراولي» ولا غيره غرق هنا.

أحمد: إنه رجل ضخم الجسم يُشبه الغوريلا.

كان «أحمد» يُريد أن يجد مجالًا للمناقشة حتى على أساس معلومات غير صحيحة ... وقد أصاب الهدف بأسرع ممَّا يتوقع؛ فقد قال الحارس: إنني أذكره ... لقد حضر إلى هنا بعد أن كادت المغارة تغلق أبوابها؛ فلم يكن هناك زُوَّار بسبب العواصف والأمطار، وطلب أن يزور المغارة.

دقَّ قلب «أحمد» سريعًا وقال: وهل سمحتم له؟

ابتسم الحارس قائلًا: لقد دفع بقشيشًا سخيًّا ... فسمحنا له بالزيارة.

قال «أحمد»: أرجوك يا سيدي أن تتذكَّره، هل كانت معه حقيبة سوداء؟

قال الحارس: لا ... إنني أذكره جيدًا ... لقد كان يحمل لفةً من البلاستيك منتفخةً كأنها بالونة.

ازداد اهتمام «أحمد» وقال: وهل خرج بها؟

قال الحارس: لا أدري ... لقد ذهبت إلى البوفيه القريب لأنه تأخَّر في الداخل، وخرج دون أن أراه.

أحمد: ألا أستطيع دخول المغارة الآن؟

الحارس: لقد انتهت مواعيد الزيارة ... تعالَ غدًا.

شكر «أحمد» الحارس وأسرع عائدًا إلى «إلهام» و«عثمان». كان الظلام هبط تمامًا ... وازدادت العاصفة حِدَّة ... والمطر انهمارًا ... ووجد «أحمد» أن «إلهام» و«عثمان» قد دخلا السيارة وأغلقا عليهما الأبواب والنوافذ.

دخل «أحمد» السيارة فأحسَّ بالدفء الذي يبعثه جهاز التكييف وقال: أول خبر له قيمة عن التمثال.

سألت «إلهام» بلهفة: ما هو؟

أحمد: «كراولي» دخل المغارة ومعه لفة من البلاستيك.

إلهام: بلاستيك! هذا يعني شيئًا واحدًا ... أنه وضع التمثال في الماء.

أحمد: لست متأكِّدًا، ولكن هذا من الاحتمال الأكبر.

عثمان: وماذا نفعل الآن؟

أحمد: لو كان في استطاعتنا إقناع الحارس لدخول المغارة وحدنا لكانت فرصتنا أكبر في البحث.

ابتسمت «إلهام» قائلة: دعوا هذا لي ... إنني لبنانية مثله ... ولعلني أستطيع إقناعه.

أحمد: سنأتي معك.

إلهام: بشرط أن تقفا بعيدًا.

ونزل الثلاثة يُواجهون الريح والمطر مرةً أخرى ... واجتازوا الممر الطويل إلى المغارة ... وكانت في انتظارهم مفاجأة ... سيارة تقف قرب المغارة ... وقال «أحمد»: لم تكن هذه السيارة موجودةً عندما كنت هناك.

عثمان: لقد مرقت دون أن نراها عندما لجأنا للجلوس داخل سيارتنا.

وأسرع الثلاثة إلى مكان الحارس ... وكانت مفاجأة تالية ... وجدوا الحارس ملقًى على الأرض خلف الكشك، ولم يكن يظهر منه سوى أطراف قدمَيه.

نظر «أحمد» إلى المغارة وقال: إنها مضاءة ... إنهم في الداخل!

أحمد: حذار ... سأتقدَّم معك، وعلى «إلهام» أن تحمينا، واخلعا الأحذية.

ونزع الثلاثة أحذيتهم؛ فقد كان أقل صوت يُحدث صدًى قويًّا داخل المغارة ... وتسلَّل الثلاثة داخلين ... ونزلوا السلالم التي تهبط نحو مترَين إلى أسفل ... وبدت المغارة العظيمة التي لا مثيل لها مضاءة ... والأضواء تنعكس على مئاتٍ من التكوينات الصخرية والملحية الملوَّنة فتبدو كأشباح ماردة تُطلق الشرر من عيونها.

كان الثلاثة يسيرون محاذرين بجوار الحائط ... وأشار لهم «أحمد» أن يُنصتوا ... ثم قال هامسًا: صوت مجاذيف.

واستمع الثلاثة، وكان صوت المجاذيف تضرب المياه داخل المغارة واضحًا. كان هناك قوارب كثيرة ... فقفز الثلاثة إلى قارب منها ... وقال «أحمد»: كما تعرفان فإن مجرى المياه في المغارة يتلوَّى كالثعبان، ومن الممكن أن نفاجئهم في أي لحظة؛ لهذا سننبطح في القارب وسأكتفي بالتجذيف وأنا جالس.

وبدأ القارب يشق طريقه هادئًا وسط قناة الماء ... وفجأةً سمع الثلاثة أصواتًا تتحدَّث. كانت المغارة تُضخِّم الأصوات بشدة ... حتى تتشوَّه الكلمات وتبدو غير واضحة ... ولكن «أحمد» كان متأكِّدًا أن القارب الآخر قريب جدًّا فهمس: استعدَّا! ... وفعلًا ظهر القارب

الآخر فجأةً من أحد المنحنيات الكثيرة في المغارة ... وشاهد «أحمد» ثلاثة رجال قد بدت على وجوههم علامات الشر ونفاد الصبر ... وكان كلٌّ منهم يلوم الآخر. وأدرك «أحمد» أنهم لم يعثروا على التمثال.

كانت اللحظات التالية حاسمة ... فقد وقف «عثمان»، وأطلق كرته الجهنمية فأصاب واحدًا من الثلاثة بضربة مباشرة سقط على إثرها في الماء ... فانعطف «أحمد» بالقارب فجأةً واختفى عن عيون الرجلَين الباقيَين. وارتفعت صيحات الغضب منهما ... ودوَّت رصاصة ضاعفت المغارةُ صوتها عشرات المرات حتى بدت كأنها قنبلة ضخمة ... ولكن «أحمد» كان قد انحرف بالقارب وقبع في مكانه ... ثم همس: ستصعد «إلهام» فوق هذا الجانب وتختفي خلف إحدى الصخور.

ودون مناقشة قفزت «إلهام» واختفت خلف صخرة وبيدها مسدس، ومرةً أخرى ظهر القارب وبه الرجلان ... وانبطح «أحمد» و«عثمان» في قاع القارب ... وانهمر سيل من الطلقات ... وأخرجت «إلهام» يدها من خلف الصخرة ... وأطلقت رصاصة ... وهوى أحد الرجلَين ... وفي اللحظة التالية كان «أحمد» يقفز من قاربه إلى القارب الآخر، بينما الرجل يُطلق مسدسه على «إلهام» ... وبلكمة واحدة نزلت كالمطرقة على وجه الرجل توقَّف إطلاق الرصاص ... ومال الرجل ومال القارب معه وسقط هو و«أحمد» في الماء المثلج، واشتبكا في صراع مميت ... كلٌّ منهما يُحاول إغراق الآخر ... ولم يُضيِّع «عثمان» وقتًا ... أمسك بالمجذاف واقترب منهما ... وعندما ظهر رأس الرجل على سطح الماء ضربه ضربةً واحدةً وانتهى الصراع.

أسرع «عثمان» لينتشل «أحمد» من الماء البارد، ثم جنح جانبًا، وركبت «إلهام» وقال «أحمد»: انتهت المهمة السهلة ... والآن أين التمثال؟

إلهام: حسب ما قاله الحارس فالتمثال غارق في المياه، والمياه عميقة، ونحتاج لأن نغطس.

أحمد: مستحيل ... إننا سنحتاج لأيام طويلة لمسح قاع المغارة ... و«كراولي» لا يمكن أن يضع التمثال في قاع الماء ... بحيث يحتاج إلى غطَّاسين لإخراجه.

كان «أحمد» ينفض ثيابه؛ فقد أحسَّ بالماء البارد يتسلَّل إلى عظامه ويكاد يُصيبه بالشلل، ولكن فكرة العثور على التمثال كانت تُنسيه كل شيء.

عثمان: هل قال الحارس إن اللفة كانت منفوخةً كالكرة؟

أحمد: نعم قال هذا بالضبط.

عثمان: إذن فإن المسألة سهلة ... «كراولي» يربط التمثال في حبل، وفي طرف الحبل بالونة، ويُلقي التمثال في الماء خلف صخرة ... بحيث يصل التمثال إلى القاع ... وتبقى البالونة عائمة.

أحمد: ولكن أي شخص يمكن أن يرى البالونة ويسحب التمثال.

عثمان: هناك حل آخر ... ألَّا تكون البالونة بارزةً فوق الماء تمامًا ... بل تكون غاطسةً بمسافة عشرة أو عشرين سنتيمترًا، وفي مكان مظلم.

أحمد: إنك رائع! سنبحث بجوار الصخور.

وأخذ الثلاثة يدورون بالقارب وأيديهم في الماء. ومرَّت ساعة قبل أن تصيح «إلهام»: البالونة!

وأخرجت يدها من الماء وبها بالونة، وأخذت تسحب الحبل ... وفي نهايته كانت لفة من البلاستيك السميك ... سرعان ما فكَّها «أحمد» ... وظهر تمثال «بوذا» وسقطت عليه الأضواء فبدا كأنه شمس صغيرة مضاءة في المغارة.

بعد ساعة واحدة من هذه الأحداث كان الشياطين الـ «١٣» يقتحمون مقر العصابة، حيث عثروا على «سوفانا» وزميله مقيَّدَين ... فأخذاهما وأسرعا إلى مقر الآسيويين، وهناك كان ثمة مشهد من أروع المشاهد التي رآها الشياطين في مغامراتهم كلها ... فلم يكد الكاهن «تاكانا» يرى التمثال حتى خرَّ ساجدًا على ركبتَيه ... وتبعه الآسيويون الخمسة الذين لفُّوا حول العالم لاستعادة معبودهم ... وأشعل «تاكانا» كميةً ضخمةً من البخور ... وارتفعت حول الدخان الزكي الرائحة أصوات الستة خاشعةً في صلاة حارَّة للإله الذي عاد.

وانسحب الشياطين ... ولم ينسَوا أن يمرُّوا بالسيارة المعطَّلة، فيستبدلوا عجلتها المثقوبة ويعودوا بها إلى المقر السري. بينما كانت «زبيدة» تُرسل التقرير الأخير عن هذه المغامرة، كان بقية الشياطين منهمكين في تناول عشائهم والحديث عن تمثال «بوذا» ومدينة الصمت التي جاء منها.

هنـــداوي